

العَرَبُ وَالمُضَارَّةُ الْمَدِينَةِ

بِقَمٍ

صَبْحِيُّ الْمُحْمَصَانِي
مُحَمَّدُ بُجَيْتُ الْأَشْرِي

أَحْمَدُ زَكَىُّ بَكْ
أَحْمَدُ سَاجِنُ الْخَالِدِي

اَرَفَتْ عَلَى اخْرَاجِهِ
هُبَّةُ الدِّرَاسَاتِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْبَارِيَّةِ الْأَمْبَرِكِيَّةِ

دارِ الْعِلْمِ لِلْمُلَاقِيْنَ - بَيْرُوت

١٩٥١

NICOLA A. ZIA
American Univ.



العَرَبُ وَالْمُضَارَّةُ الْحَرَبِيَّةُ

بقلم

صَبْحَى الْمُجْمَسَانِي

مُحَمَّد بِحْتَهُ الْأَثْرَى

احْمَد زَكَى كَبَّ

احْمَد سَاعِد اَنْجَالَدِي

اَرَفَتْ عَلَى اغْرَاجِهِ

لَهْبَةُ الْيَرَاسَاتِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْجَامِعَةِ الْمُدِيدَكِيَّةِ

دارِ الْعِلْمِ لِلْلَّاهِيَّينَ - بَيْرُوت

١٩٥١



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com رابط بديل

الطبعة الأولى

بيروت - حزيران ١٩٥١

هيئة الدراسات العربية

في

الجامعة الاميركية في بيروت



الدكتور نبيه امين فارس (دليس)

الاستاذ أنيس الخوري المقدسي الدكتور جبرائيل جبور

الدكتور البرت بدر الدكتور انيس فرجحة

الاستاذ زين نور الدين زين الدكتور اسحق موسى الحسيني

الاستاذ ميشيل أبكاريوس الدكتور نقولا زياده

الاستاذ محمد توفيق حسين

مقدمة



تحتاز البلاد العربية اليوم مرحلة عصيرة ملأى بالصعوبات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. وقد تضارب الآراء في انجم الوسائل وأفضل السبل للخروج من هذه المرحلة . فمن العرب من يقظي حياته مردداً «الصبر مفتاح الفرج» ، ومنهم من ينتظر الخلاص على يد عدو عدو ، ومنهم من يعالج قضاياه دوماً بالارتجال كلما حلّت به ازمة فتق لها حلقة . وهنالك فئة متحارة تؤمن ان جميع مشاكل العرب قابلة للعلاج اذا ما صد المسؤولون عن الارتجال وسعوا في سبيل العمل المنظم المستمر . وتؤمن هذه الفئة ان من واجباتها القومية المقدسة ان تيسّر الفرص المناسبة والاحوال الملائمة لدرس قضايا العالم العربي الملحة دراسة علمية في جوٍ علمي حر .

وهذه هي الغاية التي من اجلها وطدت هيئة الدراسات العربية في الجامعة الاميركية العزم على عقد مؤتمر «طرح فيه» بعض هذه القضايا الملحة على بساط البحث وتناقش فيها الاراء مناقشة علمية في جوٍ نقدي من المعنفات السياسية .

وهيئه الدراسات العربية هذه تضم اساتذة دائري التاريخ

العربي واللغة العربية في الجامعة ونفرآ من اساتذة الاقتصاد والتربية والسياسة . ولا تتوخى الهيئة من جميع دراساتها سوى جلاء الفاضل ، وتبسيط المعقّد ، واحكام المتشابه ، والوصول الى الحقيقة او اقرب ما يمكن اليها .

وقد وفقت الهيئة إلى الظفر بمساهمة اربعة من قادة الفكر العربي في باكورة مؤتمراتها بالقاء المحاضرات العامة اساساً للمناقشة . فقد حضر من القاهرة حضرة الدكتور احمد زكي بك رئيس مجلس فؤاد الاول الاهلي للبحوث وأحمد قادة الحركة الفكرية في القطر المصري الشقيق . وكانت حاضرته في موضوع « موقف الفكر العربي من الحضارة الغربية » . والقى الدكتور صبحي المحمصاني صاحب التأليف القيمة في فلسفة التشريع الاسلامي المعاصرة الثانية في موضوع « التشريع الاسلامي والمجتمع الحديث » . والقى المعاصرة الثالثة الاستاذ الكبير احمد سامح الحالدي رئيس الكلية العربية في القدس وصاحب التأليف العديدة في التربية والتاريخ والسير ، وكان موضوعه « المدرسة العربية - نشأتها وتطورها واتجاهها » . والقى المعاصرة الرابعة الاستاذ العلامة الشيخ محمد بهجة الاثري في موضوع « الاتجاهات الحديثة في الاسلام » .

كذلك ظفرت الهيئة بمساهمة نخبة من قادة الفكر في لبنان في المناقشات التي اثيرت حول هذه الموضع الخطيرة ، والتي شارك فيها اعضاء المؤتمر مشاركة فعالة .

ولست بمحاجة الى ان اردد انتا في هذه الدراسات لا نزوج

للفكرة ما بل للتفكير . لأننا نعتقد أن ليس في العالم فكرة بمنازة لها طلام من السحر تقهرها منافسة الفِيـكـرـ الآخرـيـ . ولا يجرؤ على التفكير الحر الا الرجل الحر . وبالتفكير الحر والتعبير الحر فقط تستطيع البلاد العربية ان تصل الى غايتها : مجتمع حر في عالم حر يساهم في التاريخ مـسـاـهـمـةـ حـرـةـ ويخلق جـزـءـاـ من حضارة العالم .

الجامعة الاميركية في بيروت

نبـيـهـ اـمـينـ فـارـسـ

١٥ نوار ١٩٥١

مؤتمر الدراسات العربية

في

الجامعة الاميركية في بيروت

١٩٥١ - ١١ نوار

وست هول

الاثنين ٧ نوار

١٦:٠٠ افتتاح المؤتمر (تحت رعاية الاستاذ ادوار نون وزیر التربية)
حفلة شاي لاعضاء المؤتمر

١٨:٣٠ حاضرة عامة

موقف الفكر العربي من الحضارة الغربية

المحاضر : الدكتور احمد زكي بك

العريف : الدكتور جبرايل جبور

الثلاثاء ٨ نوار

١٧:٠٠ مناقشة الحاضرة السابقة — الاعضاء فقط

العريف : الدكتور نقولا زياده

المعلق : الاستاذ سعى الدين النصولي

١٨:٣٠ حاضرة عامة

التشريع الاسلامي والمجتمع الحديث

المحاضر : الدكتور صبحي الحمصاني

العريف : الدكتور انيس فريج

الاربعاء ٩ نوار

١٧:٠٠ مناقشة المحاضرة السابقة – الاعضاء فقط

العريف : الدكتور جبرائيل جبور

المعلق : الدكتور اسحق موسى الحسيني

١٨:٣٠ محاضرة عامة

المدرسة العربية ، نشأتها وسيرها واتجاهها

المحاضر : الاستاذ احمد سامح الخالدي

العريف : الاستاذ جورج شهلا

الخميس ١٠ نوار

١٧:٠٠ مناقشة المحاضرة السابقة – الاعضاء فقط

العريف : الدكتور حبيب كورافي

المعلق : الاستاذ جبرائيل كاتول

١٨:٣٠ محاضرة عامة

الاتجاهات الحديثة في الاسلام

المحاضر : الشيخ محمد بهجة الاثري

العريف : الاستاذ انيس المقدسي

الجمعة ١١ نوار

١٧:٠٠ مناقشة المحاضرة السابقة – الاعضاء فقط

العريف : الدكتور اسحق موسى الحسيني

المعلق : الاستاذ عبدالله المشنوق

٢٠:٠٠ مأدبة عشاء تكريماً لاعضاء المؤتمر

موقف الفكر العربي من الحضارة الغربية

للدكتور أحمد زكي بئك

دعاني الرجال الأكرمانون الى أن ألقى كلمة موضوعها «موقف الفكر العربي من الحضارة الغربية» .
ولقد نظرت في هذا الموضوع فوجدت انه لا بد لي من ان أقف وقفة قصيرة عند الفكر العربي أتبين ما معناه ، وان أقف وقفة اخرى قصيرة، عند المدنية الغربية، اتعرّف ما مبنها .

الفكر العربي

أما عن الفكر العربي فاني انظر الى العرب والمستعربين جملة فأجدهم يسكنون رقعة من الأرض خطيرة ، وهي على خطراها رقعة واسعة تتد من الاطلس الى ايوان ، ومن تركيا الى ما يقارب خط الاستواء ، وانظر الى العرب أهـا فأجدهم أهـاً متباعدةاً خطوطاً من التقدم ، مختلفة الأنسبة من الحضارة أياً كانت هذه ، مختلفة قرونها التي تعيش فيها ، فبعضها يعيش في القرن العشرين ويقاد ان يعيش فيها بعده ، وبعضها يعيش في القرن العاشر ، بل في القرن الاول ، بل فيها قبل القرون . وأنظر في هذه الام

فرادي ، فأجد في الكثير منها رأساً أطلَّ على هذا العصر الحاضر
يرى ما فيه ، ويعلم ظواهره ويعلم خوافيه ، أما سائر الجسم فلا
عين له ، فهو يتبع الرأس كما تتبع الأجسام . وقد سهل الامر على
الاجسام ان تتبع ، لو ان الرأس رأس واحد يتوجه الى غاية
واحدة ، ولكنه رأس ذو شعب . رأس تشعب الى رؤوس ، منها
ما ينظر الى الوراء فلا يرى في الدنيا شيئاً خيراً من ورائه ، ومنها
ما ينظر الى الامام فلا يرى في الدنيا شيئاً خيراً من امامه ،
ومنها ما ينظر الى الوراء ثم الى الوراء ويفضل أن يقعد فوق السور
يستمتع بوكب الزمان الجاري .

فأي رأس من هذه الرؤوس يتمثل فيه الفكر العربي الذي
يراد لي ان اتحدث فيه ؟.

أم يراد لي أن اتحدث عن الفكر العربي متمثلاً في كتابه ؟
فهمؤلاء على قلتهم ، كالرؤوس في أنهم ، صنوف واهواء . منهم
المتأثر بالماضي غاية التأثر ، ومنهم المتحرر من الماضي غاية التحرر ،
ومنهم اوساط بين هؤلاء وهؤلاء . وليس في التأثر بالماضي ما يعيب
لان الماضي بعضاً ، ولا انه بعض الحذر ، ولان الحفاظ الذي فيه
بعض الوفاء . والفكر في كل العصور امزحة ، منها المزاج المتحفظ ،
والتفكير على اطلاقه لا يكاد ان يتحرر ابداً . انه عمل العقل
ولكن تنازعه القلوب . ان الفكر لا يكاد يخلو من عاطفة ،
والعاطفة وليدة السنين الغوابر . كذلك ليس في التحرر غاية
التحرر ما يعيب المتحررين . انهم ضيقون بزمانهم ، آسون حال
أنهم ، ناثرون على ما يرون من بؤس وجحالة ، فهم يريدون ان

يقفزوا في الزمان قفزآ ليغوصوا على أنهم ما فات .
ففي أي هؤلاء الكتاب ، وهم مختلفون ، يتمثل الفكر العربي ؟
وليس في الشرق فكر منظم . ليس في الشرق جماعات من
الناس لها أفكار ولها أهداف إلا في السياسة . وحتى جماعات
السياسة جماعات لا تجمعها أهداف يقينية . إن هي إلا غaiات
مبهمة كثيراً ما يوحى لي سلطاني بأنّ أوضح غاية فيها ابهاماً .
ان الشيء المبهم يجري وراء الاشتات من الناس ، وفي الإيضاح
التفرقة . انهم يطلبون بالإهام الكثرة ، وتلك عندهم غاية الغaiات .
ولقد يتحدث الناس عن الفكر العربي الذي لم يتوحد بعد ،
فيقولون ويطنبون ، ويأتون لك آخر الامر بالشيء الجميل او غير
الجميل ، فإذا بهذا الشيء من خلقهم ، وإذا به ، لا الفكر العربي ،
ولكن ما يجب أن يكون عليه الفكر العربي ، وما يجب أن
 تكون في حسبانهم خطوة الحياة .

ان الفكر فكرهم ، وهو عربي شرقى بمقدار ما هم عرب شرقيون .
وفي غيبة الفكر العربي الموحد ، وعلى تفرقه وتشتته ، لا بد من
قبول هذا الفكر ، ولو فكر واحد ، وهو على الأقل فكر آحاد ،
وهو على الأقل يمثل منحى من المناحي الفكرية الكبيرة .
فأنا اذا تحدثت اليكم اليوم عن الفكر العربي ، فلا أدعى لذى
أقول من التمثل أكثر من أنه يشار كنى في الذي أقول طائفة
في الشرق العربي غير قليلة .

وبعد فما يجب أن ننسى أن الفكر انفعال ، وأن فكر الفرد
من صنع البيئة وصنع النشأة وصنع الزمان .

الحضارة الغربية

ثم ما الحضارة الغربية التي أبحث عن موقف الفكر العربي منها ؟

لقد كان للانسان حضارات بكل ارض وبكل زمان . حضارة مصرية ، وحضارة آشورية وبابلية وفينيقية . حضارة اغريقية ورومانية . حضارة هندية وصينية . وحضارة عربية أثبتت وجودها وفرضت فروضها وشاركت في الحياة على هذه الارض الف عام . ولكل من هذه الحضارات فضل ، ولكل منها شيء ، وأشياء تميّزها . وهي كلها مجهودات للانسان حميدة في سبيل غاية لا يدركها . والانسان يفني وهذه المجهودات غير فانية ، أو الكثير منها غير الفاني . وهي مجهودات خالدة بحسبانها أشكالاً واغاثات وأساليب للعيش وقوالب للفكر تتوارد ، كما الانسان خالد بحسبانه نطفأاً توارث . ومظاهر الحضارات ، ومن أظهرها ، يفنيان جميعاً ، كما قال المتنبي :

أين الذي المرمان من بنيانه ما قومه ما يومه ما المشرع
تختلف الآثار عن اصحابها حينما ويدركها الفناء فتبعد
الا الفكر . الا الفكر الذي أنتجه ، او الفكر الذي أنتجه ،
فهذا يخلدان ، لأن الفكرة لا تموت . ولقد بقي من الحضارات
الماضية أفكار ترقد في أوراق ، لانزال نجتليها ، ونسرح البصر
ونسرح البصيرة فيها .

والمدينة الحاضرة اذا هي جماع تلك المدنيات جميعاً . والمدينة

الحاضرة تجد في تلك المدنية الغابرات فكرة ترضاها فتنتفع بها ، أو تجد فكرة لا ترضاها فتتجنب أذاتها . فهي فكره تمدي على كل حال حتى بروضها ، كالطريق الذي لا تسلكه بذلك على الطريق الذي تسلكه .

والمدنية الحاضرة تميزت بصفات وتألفت من عناصر سوف أجده في اخراج بعضها وابرازه صفة صفة ، أو عنصراً عنصراً ، وأدلي بموقف الفكر العربي ، كما أراه ، منها .

المضارة والعلم

ان المدنية الحاضرة ميّزتها الكبرى العلم ، العلم الطبيعي ، العلم التجاري .

والعلم ليس كالناس يولد في ساعة . انه يولد على القرون فلا تكاد تعرف له ميلاداً . وأنا ان ذكرت الميلاد ، حلا لي دائماً أن أتخذ من حياة لافوازييه للعلم ميلاداً . وهو ولد عام ١٧٤٣ ومات عام ١٧٩٤ ، فحياته استغرقت النصف الثاني من القرن الثامن عشر . ولا فوازييه أبو الكيمياء الحديثة لأنه كشف الهواء ، كشف عناصره . وما كانت مدنية مؤسسة على العلم الطبيعي لتكون الناس في جهالة من الهواء الذي منه يحيون ، وفيه تحدث الاحداث للأشياء والناس . انه لو لا أن تركيب الهواء اتضح ، ما امكن ان يكون علم ولا مدنية علمية . واذن فاذا قلنا ان العلم ، والمدنية العلمية ، لم تقف على ارجلها الا من نحو قرنين لم نعد الصواب . والعلم قبل ذلك لعله كان يحبوا ، ولعله طال

حبواً، وطال كثيراً.

وصفة العلم هذه هي الفالة اكثراً الغلبة على المدنية الحاضرة ، لأن الكثرة الكبرى من نتائج العلم مادية ، وهي تتصل أكثر اتصال بما يرى الناس ، ويسمع الناس ، ويحس الناس ، وبما يأكلون ويلبسون ويسكنون ، وبوسائل بها ينتقلون على الأرض او على الماء او في السماء . وهي تتصل بضرورات الحياة ورفتها . ولو ان رجلاً من مدينة غابرة نشر ونفخ عن نفسه التراب ، وأخذ يشي بيمنا كما فعل عيسى بن هشام ، لخفى عليه اول الامر من مدينتنا كل شيء ، الا هذه الظواهر المادية الكثيرة ، فهي ستبده ، وهي ستدهشه ، وهي ستتشدده . وهو سيؤخذ بها اول يوم ، أما مظاهر المدنية الاخفى فستكشف له على الاشهر ، ومنها ما لا يتكتشف الا على السنين ، لأنها لا تكتشف الا بالدراسة الطويلة والممارسة .

وهنا نتساءل ، ما موقف الفكر العربي من هذا الاصل الاول من أصول المدنية الحديثة ؟

والجواب انه المناصرة بغير شرط ، وبغير حد ، وفي غير احتياط . ذلك ان العلم وليد المنطق ، والمنطق لا يرفضه ويرفض نتائجه ذو عقل . واحسب أنا جائعاً ، أهل الشرق العربي ، من العقلاه .

وسبب آخر لمناصرة العلم ، انه سبب المرفاهية ، ورغد العيش ولينه ، عظيم . وهو لتسهيل الحياة وتيسيرها ، وليس بعاقل كبير العقل من يريد الحياة خشنة ، او من يريد لها عصيرة ، في غير ضرورة .

وبسبب ثالث ، ان العلم يجعل الحياة أكثر امتلاء ، وهي
بامتلاهها أكثر زماناً ، فهي اطول . والذى يعيش اليوم ، في بيته
هذه الحضارة العلمية أربعين عاماً ، فقد عاشها أربعين كهانين من
العصور الأخرى . ان سنوات العمر ، كورق النقد، تعلو وترخص ،
ويصيبها التضخم ، على الخطاط قيمة ، ويصيبها التقلص أحياناً .

وبسبب رابع لمناصرة العلم ، ان الناس ، بسبب العلم ، ولاسباب
غير العلم ، زادوا أعداداً ، وزادوا فوق ما تسعهم الارض ، وفوق
ما تكفيهم غذاء ، وفوق ما تكفيهم كساء . وهذا الضيق يقوم
بتفریجه العلم . فهو يفرض على الارض ان تنتج الكفاية من الطعام ،
والكافية من اللباس ، والكافية من ضرورات العيش .

ان قوماً يشكرون الفقر لا يأخذون بأسباب العلم . وكذلك
قوم يشكرون المرض . ان العلم أسرع ذهاب بالفقر وأسرع
ذهاب بالآلام . إنه يجتث الآلام من أصولها، باجتناب أسبابها ،
وعنده أن الوقاية خير من العلاج .

وبسبب الخامس لمناصرة العلم ، ذلك أنه لأسباب خارجة عن
العلم ، لا يزال الناس يأكل بعضهم بعضاً ، ويأكلونهم بالعلم ، ولا
أحب أن أحداً في الشرق العربي يحب أن يؤكل ، والعلم يمنعك
من أن تأكلك الذئاب .

لقد كدت أحس بشيء من السفة في تعدد ما للعلوم من
منافع ، ومن أسباب مناصرته . ذلك أن من بعض السفة
تعداد البدائه .

* والفكر العربي مناصر للعلم في كل ما ذكرت من هذه *

الحقول المادية . وهو مناصر له ايضاً في مسائل الحقول ، فعلى
العلم وعلى نتائجه يجب أن تتأسس معانٍ الحياة ، وعقائد الحياة
وما بعد الحياة . ان العلم وحده لا تتجزأ .

وقد نضيق بالعلم وبنتائج العلم ، فنطلب التردد في غيابه ،
ونطلب الرفه بمنفيه وابعاده . وقد ينفي الناس العقول بالشراب
ليتردّوا ، ولكن الى حين ، يعودون بعده الى ممارسة الحياة
على العقل الوعي وعلى القلب الصافي .

ونحن نناصر العلم ونعلم أن من الناس من خلطوا بين أشياء
اثبتها العلم وهي حقائق ، وأشياء خالها العلم فهي ظنون ، وأشياء
لم يعها العلم لا بالظن ولا باليقين ، فهي من خلق أصحابها .

ونحن نناصر العلم ونعلم قصوره وقصور أدائه . ان أدلة
العلم لا تزال الوزن والقياس ، ولكن قوماً يريدون أن يقحموا
غصباً فيها لا يوزن ولا يقاس ، لا طلباً لشيء قد يكون وقد
لا يكون ، ولكن اثباتاً لشيء هو في أذهانهم كائن قائم ، وقد
يكون قائماً وقد يكون كائناً ولكن ليس هو بما يستطيع العلم
أن يشير اليه بأداته الحاضرة .

فهذا هو العلم ، أظهر صفة من صفات المدنية الحاضرة .

الفكر العربي والديمقراطية

ثم الى الديمقراتية، تلك الصفة الثانية من صفات هذه المدنية .
ونحن نعني بالديمقراتية هنا معناها الحرفي الذي يدل عليه
لفظها ، وتدل استعاراتها ، ذلك حكم الشعب بالشعب . إنما

الديمقراطية السياسية .

ان العصور الغابرة لم تعرف الديقراطية الا حكمة في القول
غابرة ، والا نصيحة يأخذ بها من يأخذ ويدع من يدع ، والا احنا
الحكام على الشورى لم يبلغ حد الفرض ، ولم يكن له اثر يطول .
ولقد دعّوا أثينا البلد الديموقراطي " الاول الذي عرفه التاريخ .
وكانـت أثينا مع هذاـمدينة من مـدـائـن الأـغـرـيقـ أـكـثـرـ أـهـلـهاـ
الـعـبـيدـ .ـ كـانـتـ دـيـقـرـاطـيـهـ دـيـقـرـاطـيـهـ لـلـقـلـةـ فـيـهـاـ مـنـ الـاحـرارـ .ـ
وـكـانـتـ دـيـقـرـاطـيـهـ مـحـدـودـهـ مـشـرـوـطـهـ .ـ وـهـيـ دـيـقـرـاطـيـهـ ضـاقـتـ
بـالـذـيـ قـالـ سـقـرـاطـ ،ـ بـالـذـيـ صـرـحـ بـهـ مـنـ آـرـاءـ ،ـ فـقـضـتـ عـلـيـهـ بـالـمـوـتـ .ـ
وـهـيـ دـيـقـرـاطـيـهـ التـيـ قـامـ فـيـهـاـ فـلـيـسـوـفـهـ الثـانـيـ أـفـلاـطـونـ يـقـولـ فـيـ
جـهـوـرـيـتـهـ بـحـصـرـ الـحـكـمـ فـيـ فـتـةـ مـنـ خـيـارـ النـاسـ ،ـ هـيـ وـحدـهـ
الـصـالـحةـ ،ـ وـهـيـ وـحدـهـ الـمـسـؤـلـةـ ،ـ وـسـائـرـ النـاسـ لـهـ تـبـّعـ .ـ

وجاءت المسيحية فحاولت ما حاولته الاجيال من قبل ومن بعد : أن تجعل الناس سواسية . وحاولت ان ترفع حظ الفقير وان تجعل الثراء أمانة في عنق صاحبه يرعى فيه ، وبه ، صوالح

الناس . ولكن لم تثبت المسيحية ان صارت دين الرومان ، ولم تثبت الكنيسة ان صار لها وجود ذاتي ، وصار لها استقلال وقوه وصار لها ثروة ، وصار حكم ، وصاحب الحكم لا ينزل عن حكمه طوعاً ليقسمه بين الناس .

وجاء الاسلام فقال بالذى قالت به الاديان وزاد . وجعل الحكم شورى ، والرّق جعله كفارة لشئ الحطابا ، تفرجاً له وتكريراً فيه . وقال : سلمان من آل البيت . وقال : ان اكرمكم عند الله اتقاكم . وجعل للفقير حظاً في مال الغني . وفعل و فعل ... ولكن لم يثبت الاسلام ان صار ملكاً عوضاً ، ولم يثبت الخلفاء ان صاروا حكامًا مطلقين ، يصلح منهم من يصلح ويفسد من يفسد ، والناس تتلقف الخير وتتلقف الشر جزافاً كا يأتي به الزمان .

وجرى الحال على هذا المثال في الامم قرونًا ، لم يطمئن الناس فيها على ما في جيوبهم من مال ، ولا على ما فوق اكتافهم من رؤوس . حتى جاء القرن السادس عشر ، وبدأت بوادر الديقراطية بين امم الارض في اوروبا . بدأت بانشقاق الكنيسة على نفسها . ودافع المنشقون عن عقائدهم . والنقطة من الدفاع عن الحقوق الدينية الى الدفاع عن الحقوق المدنية نقلة يسيرة . وجاء القرن السابع عشر فهب الانجليز يوطدون دعائم السلطة في الشعب بالدفاع عن بولائهم . فكانت الثورة . وكان أن طاح الرأس الذي دار به خمر السلطان المطلق فأساء حكمًا .

وجاء القرن الثامن عشر فقامت الثورة الفرنسية ، مهد لها

الكتاب الذين أسموه بالفلسفه ، فلتيير Voltaire ، دiderot ، ديدرو و Montesquieu ، مونتسكيو .

وقبل الثورة الفرنسية بأعوام وقعت حرب استقلال اميركا ، وباستقلالها توطّد الحكم الديمقراطي فيها .

وانفسح المجال أمام الشعوب بعد ذلك لأن يتخذوا الديمقراطية عقيدة ، وان يتبعوها أسلوب الحكم . وتعددت الاساليب الى يومنا هذا ، والغاية واحدة .

والفكر العربي يقف من الديمقراطية ، من حكم الشعب بالشعب ، موقف المناصر الشديد المناصرة . وهو يشتند في مناصرته لها بقدر ما اعوزه منها . وهو يناديها ويعلم انها لم تبلغ الغاية بما أمل الناس منها ، ولكنه ينادي لانها الى اليوم خير ما ابتدع الانسان من اسلوب . والفكر العربي يناديها وهو يعلم ان حكم الشعب بالشعب ، وهو جاهل ، وخيم العواقب ، ولكنه ينادي لان حكم الشعب يقابل حكم الطغاة ، وهو اوخر عاقبة ، وهو اعون على دوام الجهل ودوام العجز ، ودوام الفقر ، ودوام الذل والمسكنة ، وكثيراً ما يسأله الشيطان ان ارى ان الطغيان يأتي منا والياب ، أرحم منه الطغيان الذي يأتي من الاعاجم ، لانه مع طغيان الاعجمي في هذا العصر المدنى ، قد يأتي العلم ، وقد تأتي الحضارة ، وقد تأتي نسمائم للحرية لا تهبّ والابواب مغلقة . والاجنبي الطاغية قد يكون اسهل اقالة . وانت اجدر معه ، ان قلت هلم ، ان تستجيب لك القلوب ، او تستجيب لك الحناجر ، وان كنت حسن الظن فقد تستجيب السواعد .

العلم والديمقراطية

فهذا هو العلم وهذه هي الديمقراطية ، أظهر صفات هذه المدنية الحاضرة ، وأضخم صفاتها . وقد جاءت الإنسانية معاً ، متواقتين ، كأنما كانوا على ميعاد .

والى جانب هاتين الصفتين صفات أخرى ، اتصلت بها المدنية الغربية ، بعضها تقدم العلم في الزمن ، وتقديم الديمقراطية ، فكان من خوالقها . وبعضها تأخر في الزمن عن العلم وعن الديمقراطية ، فكان من خلوقاتها . وبعضها امتهن بها فلا تدرى أهو خالق أم مخلوق . وسأصب من ذلك طرفاً .

المدنية وحرية الفكر

وأول هذه حرية الفكر ، وهي صفة من صفات المدنية الحاضرة أصلية ، بدونها لا يكون علم ممكناً ، وبدونها لا يكون حكم الشعب بالشعب ممكناً ، وعلى بداهة هذا فقد ضاق بالحرية ، حرية الفكر ، صدر الزمان . والعرب يستطيعون أن يفخروا بأنه جاءت عليهم حقبة من الدهر كانوا فيها من أكثر أهل الأرض رحابة صدر .

لقد كان من أسبق صنوف الحجر على حرية الرأي في الذي نعرف من التاريخ ، الحجر على الرأي الديني المخالف ان يشيع . والعرب اختلفت في احكام دينها الغالب ، وجعلته مذاهب استقرت على اربعة ، يستحكم بينها الخلاف أحياناً الى حد التناقض ، ومع هذا تجتمع بين أهل هذه المذاهب الصلاة ، وتجتمعهم سائر المشاعر ، ولا ينطر على بال احد انه ومن على يساره او على يمينه مختلفان .

وانتشرت صدور الشرق مثل هذا في القرون التي ضاقت فيها صدور الغرب ، فكان الاضطهاد من اجل الرأي في الدين ، وكان الطرد من الكنيسة ، وكانت حاكم التفتيش ، وذلك في دين عيسى الذي ان اخذ عليه شيء في هذا الصدد فهو الزيادة في الرحابة ، ومقابلة العداوة بالصدقة ، والكراءة بالحب ، والاساءة الزائدة بالاحسان الزائد .

ومن هذا فقد اسماء العرب الى حرية الفكر اسماء لا تغترف ابداً ، ذلك انهم اغلقوا باب الاجتهاد في الدين ، ليفرضوا رأي قرن على سائر القرون . فحجرروا بذلك على العقول ، حجروا عليهم ما كسبت على الزمان البرجان ، واتسع افقها بالعلم ، واجتمع عندها الكثير من الخبرة ومحاصيل الاجيال .

على أن الحرية الدينية أصبحت في أغلب أمم الأرض اليوم عادة تكاد أن تكون شائعة . وما كان ذلك عن رحابة ، ولكن عن قلة خطر الاديان عند من يدهم سلطان الحظر والاباحة . وقام مقام الحجر على الحرية الدينية الحجر على الحرية السياسية . وانهياراً جاء الحجر على الحرية الاقتصادية ، فهي اليوم أشد أنواع الحريات كراهةً الى ذوي الحكومة والسلطان .

ولقد تميز العصر الحديث بقيام دكتاتوريات من صنوف وانواع ، كان اول شيء خشيته فأهدرته حرية الرأي ، يمهر بها الفرد او تمحر بها الصحافة ، وهي اللسان الذي اذا قال استمعت له ألف الآلوف من الآذان .

والرأي العربي يقف من حرية الرأي موقف المظلوم الذي

كما نطق قبل له الخير في السكوت . ومن أمم العرب اليوم ،
أمم لا يستطيع بها الرجل المواطن ان يقول إلا همساً . ومنها
أمم أكثر بجالاً في القول ، ولكن بها الساسة أحقر ما يكونون
على حرية القول وهم في معارضه ، فإذا ما ولّوا الحكم فتلوها
الحبل الذي سوف يلتف على أنفاسهم عندما يعودون فيعارضون .
ان حرية الرأي والجهر به ، كسائر الحريات ، لا بد لها من
تحديد وتنظيم ، والا كان منها الجور من الفرد . ولكن
الجهر بالرأي فيما يمس حقوق الرأس عامه حق من حقوق الشعب
لامارة فيه ولا مهادنه . وبهذا يأخذ الفكر العربي ، فيعطي
حرية الفكر اكبر بحال ولا يقف بها الا حيث يختتم الامن
وتهدر الارواح .

المدنية والمساواة

ان المعاني الانسانية ، مثل الناس ، بينما اواصر وأرحام ،
والمعنى التي تتصل بالتحرر يولد بعضها بعضاً ، ويأخذ بعضها عند
الذكر برقباب بعض . وكذلك المعاني التي تتصل بتقييد الحرية
ونفي الارادات الانسانية ، يولد بعضها بعضاً ، ويأخذ بعضها
برقباب بعض .

والمساواة معنى نشأ مع الزمرة الصالحة من المعاني . فنشأ مع
الديمقراطية ، ونشأ مع الحرية الفكرية ، اذ ما كان يعقل ان
يكون حكم الشعب بحكمنا الا أن تكون مساواة في الحقوق
السياسية . وما كانت حرية الفكر بكتنة الا أن تكون مساواة

في الحرية الفكرية . ومن هذين هدف فكرة المساواة بين الناس في كل شيء من شؤون الحياة .

وإذا نحن نظرنا إلى الوراء البعيد والوراء القريب ، وجدنا أنهاً قام مجتمعها على الطبقات ، أعلىها الأشراف ، وأسفلها الانجاس أو أشباه الانجاس ، وأنماً أخرى كانت المساواة فيما مساواة عند الله لالناس ، وأنماً أخرى كانت المساواة فيها أملأ تحقق أهلها واهدر أكثره ، ثم ذهبت الأيام بالبقاء منه . والمدنية الحاضرة لها معانٍ في المساواة جميلة ، الا أنها لا تزيد جمالاً عن معاني القدماء ، ولا عن معانٍ جليلة جاءت بها الأديان . ولكن الفرق واسع بين المعنى الجميل يسكن صدرك ، والمعنى الجميل يجعل منه أسلوباً قاماً من أساليب العيش .

وفضل المدنية الحاضرة على أكثر المدنية الغابرة أنها فصلت ما كان قد اجمل ، وانها خلقت وابتكرت لتنفيذ معنى المساواة أساليب . وسأفصل بایجاز هذا . ولكن لا ضرر ان اسبق فأقول : ان المدنية الحاضرة لم تبلغ في المساواة بين الناس الغاية ، ولا اقتربت منها ، ولكن خططت اليها الكثير الواسع من الخطوات .

المساواة أمام القانون

وأول المساواة ، المساواة أمام القانون ، وهي لا يمكن ان تكون في أمة و الحكم فيها مطلق . ذلك ان الحكم المطلق يقوم به رجل له بطانية تسند له . وبالبطانية لها ثمن ، والسد له ثمن . وهي بطانية وهو سند اكثر ما يكون للشيطان فهو أفحى ثمنا . والقانون

الذي يُشغر مرة يُشغر مراراً ، ثم يكون كالثوب الذي تهلهل حتى
ما تنفع فيه الرقع . والشعوب عانت في دفاعها عن القانون من
نفوذ ذوي الأمْرَة وذوي المال عناً كبيراً . وقد قضت المدنية حيث
توجد مزدهرة ، على نفوذ ذوي الأمْرَة . يقف رجل البوليس
السيارة في الطريق ، وقد اندفعت بما لا يريد القانون من سرعة ،
فيقضي بغرامة صاحبها . فيبحج هذا بمكانة له أو جاء ، فيبتسم
البوليس الصغير الفقير ، وترتفع الغرامات ضعفاً أو أضعافاً . ولم
يستطيع القانون بعد أن يقضي على نفوذ المال . ومن بعض أسباب
ذلك أن استقرار القانون نفسه يحتاج إلى المال .

والمساواة في العدالة تحتاج مع القانون إلى رجال ينفذونه
وينفذونه . وهؤلاء أعزّ مطلبـاً . من أجل هذا كان الدفاع عن
استقلـال القضاـة بضرـوب الـثـيـات ، وكان الحق في ردّ القاضـي اذا
اتصلـتـ بهـ رـيبة ، وكان نظامـ المـخلفـين زـعـماً بأنـ الكـثـرة أـعـسرـ انـ
يتـطـرقـ إـلـيـهاـ الفـسـادـ .

وما أـحـوجـ اـمـمـ الشـرـقـ إـلـىـ بـعـضـ ماـ وـصـلـتـ إـلـيـهـ اـمـمـ الـغـربـ
مـنـ مـساـواـةـ اـمـمـ الـقـانـونـ .

المساواة في الأصول

ومن المساواة المساواة في الأصول ، أو المساواة رغم الأصول .
والمـساـواـةـ رـغـمـ الـأـصـوـلـ صـرـخـةـ فـيـ النـاسـ قـدـيـةـ ، وهـيـ صـرـخـةـ فـيـ
الـشـعـوبـ الـعـرـبـيـةـ قـدـيـةـ مـعـرـوـفـةـ . بلـ هيـ لـمـ تـحـتـاجـ فـيـ الـعـربـ إـلـىـ
صـرـاخـ ، ذلكـ أـنـ هـذـهـ الـمـساـواـةـ فـيـ طـبـعـهـمـ ، وهـيـ مـسـتـمـدةـ مـنـ

بدوهم ، فالنبي يا محمد ، وال الخليفة يا أبو بكر ويا عمر . لم يكن فيهم صاحب العزة او صاحب النيافة او صاحب الفضيلة . كانت العزة فيهم وكانت الفضيلة أصلا ، فهي لا تحتاج الى تنويه . وكانت مدارسهم مساجد مفتوحة الابواب لكل طالب ، فلم تكن فيهم اكسفورد ولا كمبروج . وكان أصل المرأة لا يقف به دون ان يصل الى اسمى المراتب . فالمحوسى او من كان ابوه محوسيا يصل الى اكبر مراكز الدولة ، ومن ذلك البرامكة . وبائع الحرير منه الى الشريعة فيبلغ بها عند الناس المكان الارفع ، فيحترمونه ويجلونه ويتبعونه ، فذلك ابو حنيفة النعيم . والجبار يلد ولدا لا يجد سبيلا الى العيش الا من سقي الماء يحمله في جامع عمرو ، فيصله ذلك بالعلماء فيسمع منهم ويحفظ عنهم ، فاذا به الشاعر الكبير الفحل . فذلك ابو تمام . والشعب العربي يألف كل هذا ولسان حاله يقول : الكل لآدم ، وآدم من تراب .

وبقي هذا الطبع في الشعوب العربية الى عصرا هذا ، في البدو والريف ، وفي اكثرا اهل المدن ، الا جماعة من هؤلاء اخذوا عن عهود من الحكم لا يبار كها الله نعرة لا تأتلف والطبع الشرقي العربي أبدا . والا جماعة قليلة اخرى رفعها المال رفعها ، وحط بها الجهل ، وهي تأبى ان تنحط ، فاختذت من المرتفع ذريعة الى الرفع ، وحاطت نفسها بزخرف من زخارف المضاراة كاذب ، لعل في برة الظاهر ما يغنى عن استجلاء الباطن .

والشعوب العربية لم تضق بغير العربي ، فسبغ فيهم الكثيرون من الاعاجم ، ولم يضيقوا بغير المسلم ، فكان الاخطر من المقربين

إلى خلفائهم ، خلفاء بني أمية ، والدين جديد وقلوب المسلمين يقظة . واليهود وجدوا بين العرب ملحاً لما ضاقت بهم سبل الأرض . والسود . لم يضق أحد بالسود ولا بالصفر ولا بالحمر ، ويلقى الإيض الأسود إلى يومنا هذا فلا يكاد ، على اللسان العربي ، أن يلاحظ سواده .

ففي المساواة بين الناس رغم حقاره الأصل ، وعلى اختلاف المولد من الأرض ، وعلى اختلاف لون الجلد ، ليس في المدينة الحاضرة درس واحد تلقىء على الشريقي بل إن دروس الشرق للغرب في ذلك كثيرة نافعة .

المساواة بين الرجل والمرأة

ونوع آخر من المساواة جاءت به المدينة الحاضرة ، تلك المساواة بين الذكر والأنثى . وتلك مساواة على المجتمع الغربي طارئة . فيحظ المرأة في شرق وغرب كان سواء . والرجل كانت دائماً ، في شرق وغرب ، قواماً على المرأة . والمرأة في المجتمع الغربي إلى اليوم ، تتنهد عند الزواج ، على يد القس ، بالطاعة لزوجها . ولكن معنى المساواة أخذ يتغلغل إلى كل شيء ، فيبلغ فيها يبلغ علاقة ما بين الرجل والمرأة . وتعلمت المرأة الغربية فوجدت نفسها كفيفة للرجل فرفضت قيام الرجل على المرأة . ومنهن من رفضته شكلاً واكتفينا . ومنهن من رفضته موضوعاً . وخرجت المرأة تعمل كما يعمل الرجل ، وتكسب كما يكسب ، فأغراها استقلالها في الكسب بطلب استقلالها عند الزوج . والحق أن

قيامة الرجل على المرأة التي فرضتها الاديان ما كانت ترمي الى ظلم ولا اجحاف ، وما كانت تمنع من تعاون وتفاهم . ولكن البغي في الناس قديم . وقد عصم الحب المرأة من بغي الرجل ما دام ، وعصمت الذرية الناتجة منها ، وعصمت حاجة الامرة الى السلام وضيقها بالنزاع القائم والقلق المتصل ، ولكن كان في الرجال بغاء لم يكن للنساء منهم من عاصم . واني ، في هذا العصر الحاضر ، وعلى الثقافة المنتشرة في الناس بين رجال ونساء ، لا اكاد اتصور رجلاً مثقفاً ، تأتيه زوجته ، وهي امرأة مثقفة ، تقول له بيبي وبينك خلاف خطير لا ارضي لك ان تكون فيه خصماً وحكماً ، فانا اطلب حكم الله فيه على ايديي قضاة من قضاة الله ، في محكمة من حاكم الله ، لا استطيع ان اتصور رجلاً تأتيه امرأة تقول له هذا ويقول لا . وذلك اكبر ما تتطلبه المرأة من مساواة .

وتطلب المرأة المساواة السياسية ، وتطلب ان يكون لها صوت كصوت اكثر نساء الغرب . فيقال لها انك لا تفهمين في السياسة . وينسى القائلون بهذا ان السياسة سياسة دولة ، فهي الى جانب انها سياسة حكم ، هي سياسة مال ، وسياسة مجتمع ، وسياسة اسرة ، وسياسة ضرائب اكثر ما تشقي بها المرأة ، فلا بد ان تقول فيها وان تقول سديداً . ثم كم من الرجال يفهم تلك السياسة التي يريدها القائلون بحرمان المرأة . ان حقوق النساء فيما يتصل بالسياسة على اوسع معاناتها يجب ان يكون مناطها ، لا ان هذا ذكر وتلك انتى ، ولكن ان هذا او هذه يعقلان او لا يعقلان ، وكم حظهما من جهل او علم ومن عرفان .

وتطلب المرأة المساواة في العمل . وعمل المرأة لا شك في البيت . وهكذا هي الكثرة الكبرى من نساء الغرب . ان المرأة لا تستطيع ان تلد وتربى اطفالها وتكتسب خبزهم في وقت واحد ، إلا ان تضطرها الضرورات . والذى دفع بنساء الغرب ان تعمل كما يفعل الرجل انما هي الضرورة وقصوة العيش . ان المرأة العانس التي لا رزق لها انما تأكل من عملها او تأكل بشدتها او بغير ذلك ، وليس من حق احد ان يقول لها لا تعمل إلا ان يضمن لها رزق الحياة . والقول عندي ان نفتح ابواب العمل للنساء جميعاً ، ليأخذ كل من الاعمال ما يصلح له ، وعندئذ تعمل قوانين الحياة عملها فلا يكون منها إلا الخير . ان الذي يغري النساء بدق الابواب ، ودفعها عنيفاً ، ان الابواب مغلقة . وللنساء في حيلتهن ما يكفي لرد الكثرة الكبرى منهن الى وظائفهن الاولى التي تخصصن لها في الحياة ، تلك ايجاد الحياة في ظل الحب ، ورعرعتها من بعد ايجاد ، واسكان هذه الارض .

وكان من مساواة الرجل بالمرأة في الغرب ، ان وجدت المرأة نفسها تهدر من الحرمات ما اهدر الرجل ، وهي مساواة في سبيل الشيطان لا يرضها انسان ، ولكن رضيها الغرب لشدة احساسه بمعنى العدالة والمساواة حتى في القبيح من الامور .

المساواة في فرص العيش

ومن المساواة المساواة في فرص العيش وطلب الارزاق ، وقد نسمى هذه الديمقراطية الاقتصادية . وللمدنية الحاضرة فيها

أساليب عدة . منها الرأسمالية . ومنها الاشتراكية وهي صنوف . منها الشيوعية . أما الشيوعية فلنسنا ندور بها ، ومن أجل هذا نتحمّل . وأما الرأسمالية فشرّ اذا ما تركت في ايدي فئات من رجال لا يجر كفهم بحكم الطبع الا الاثرة والا الهوى ، والرغبة في زيادة المال أضعافاً ، وزيادة ما يأتي به من جبروت . ويصنع منهم موقفهم من مناهضة الشعب عصابة تقوم فيه تبييع حقوقه وتشتري وهي بعيدة عن ريبة الشعب لأنها بعضه ، وهي ترضى دائماً ان تخفي وراء الحاكمين ، ما بقيت في ايديها مقاليد الامور . وهؤلاء ان كانوا شرّاً على امتهن ، فشرهم على علاقات ما بين الامم اكبر .

ولكن الرأسمالية غير ذلك اذا كانت رأسمالية شعوب ، وكان لكل فرد من افراد الامة فيها نصيب . يعملون جميعاً للانتاج ، ويقفون جميعاً صفاً واحداً عند التقسيم . وهذه هي الاشتراكية واليها يجب ان يتوجه الفكر العربي ، وان يتمسك بها مبدعاً . اما انفاذها فدونه الجهد المر الطويل .

المساواة في التعليم وفرصه

ومن المساواة التي ابتدعتها المدينة الحاضرة ، المساواة في التعليم وفرصه . بل هي جعلت التعليم اجباراً لبعض سنين وسمته الزامية ، وسمته اولياً . والتعليم على الاجبار لا يكون الا بجاناً ، فيجعلته بجاناً .

وكان التعليم قبل ذلك ، في سائر الامم ، وفي سائر المدنیات ،

وعلى القرون ، مقصورةً على فئة قليلة من الناس . ثم اراد الله
لهذه الفكرة الجديدة ، فكرة نشر التعليم وتعيميه ، اراد لها
ان تنبت في الغرب من اوروبا ، عند انشقاق الكنيسة . رأى
المشقون ، البروتستانت ، أنّ خلاص الشعب الديني لا يكون
الا بالوصول المباشر بينهم وبين الله عن طريق انجيله . وادن لابد
من القراءة . وادن لابد من التعليم ، وعن طريقه يبشرون .
وعلم الكاثوليك يعارضون نشراً بنشر ، وتبشيرًا بتبشير ،
وفتح مدارس بفتح مدارس . وتألف اليسوعيون جماعات
كان لها في هذا الميدان بأس شديد . وجاءت الديمقراطيّة فرأى
ان تنشر التعليم ، كما رأت الكنيسة بشقيها ، ولكن لغير
تلك الاسباب . رأت الكنيسة نشر التعليم بين الشعوب
ليكون سبيلاً لهم الى السماء أهدى ، ورأى الديمقراطيّة نشر التعليم
لتكون المهدية على هذه الارض . وتنافز الطرفان امر
التعليم . تنافزت الكنيسة والدولة . وغلبت الدولة
آخر الامر .

وجاء القرن التاسع عشر ، واكتمل ، فاذا التعليم قد عمّ في
اكثر الامم الناهضة .

ولا اظن ان احداً يريد ان يسألني ما موقف الفكر العربي من
هذا الكسب الجديد من مكاسب المدنية الحاضرة ؟
انه ليس دليلاً على حاجة الشرق العربي الى التعليم ، يكون
الزاماً ، ويكون عاماً ، كمحاربة المستعمرين له في كل امة
يستعمرونها . ودليل آخر ، محاربة الرجعيين له ، والمستحوذين

على السلطان من كل نوع ، في الامة الواحدة. ان ذوي السلطان اذا لم يعصمهم الله ، يخسرون الشعوب ، ويخشونها متعلمة . وهم يحاربون التعليم علانية ، ان استطاعوا ، ولكن اكثراهم يحاربونه خفية . وانظر لبعض الامم العربية لارى كم بها من تعلم فلا اكاد اجد . وانظر لبعضها الآخر لارى من اي وقت في التعليم بدأت ، والى اي شيء قد انتهت ، فأقف واعجب . ان التعليم قد يتخذ في تخذيله احسن الدعوات ، ومن هذه الدعوة الى الروبة ، فالى البطء ، لأن بغيرهما لا يكون احسان . ان شر ما يخشاه الرجعيون ، واهل السلطان ، من التعليم ان التعليم يأبى الجوع ويأبى العري ، ويأبى العمل الا ماجوراً أحسن الاجر وتتفتح عينه بالذي يصيبها من نور ، وتتفتح نفسه للطبيات .

ان التعليم عندي مفتاح كل مغلق من مغالم الحياة ، في شرقنا هذا العربي . ولو اني خيرت بين اشياء كثيرة يعطاهـا العرب ، ما اخترت المال ، ولا اخترت الاستقلال ، ولا اخترت التعليم يشمل ويعم ، فهو الوسيلة الى المال ، وهو الوسيلة الى الاستقلال ، وهو الوسيلة الى فتح كل باب مغلق يندفع منه الخير كثيراً وفيراً.

المدنية وشؤونها من الحياة الاصغرى

بقيت اشياء اخرى من اشياء هذه المدينة الحاضرة ، تتعلق بأسلوب العيش : اسلوب الغذاء ، واسلوب الكساء ، وما شاكل ذلك . فهذه اشياء لا تقدم كثيراً ، ولا تؤخر كثيراً ، وللعربي ان يأخذ منها او يدع . واثياء اخرى تتعلق بالطبع والعادات وهذه

ما لا تستطيع المدنية ان تفعل فيه شيئاً .

مقدمة المدنية الحاضرة

وختاماً، هذه هي المدنية الحاضرة، وهذه اصولها. هذه هي المدنية التي اكره ان اسمها غريبة لانها مدنية انسانية ، هدفت لا الى اسعاد غرب دون شرق ، ولكن الى اسعاد الانسان اينما كان . وهدفت الى تعريف حقوق الفرد والجماعات ، والى تعين الحقوق والواجبات ، في اي قوم وبأي ارض . وهي مدنية ، رغم بده نشأتها في الغرب ، لم تصطبغ كثيراً بصبغة دينها الغالب . واكثر مفكريها ، السابقين واللاحقين ، وقفوا بعيداً عن الدين ، تعمداً وقصدآ ، وهم يفكرون .

والمدنية الحاضرة ، ككل المدنيات ، لها محاسن ومقاييس . وقد تركت على محاسنها ، وتركت القبيح . لان القبيح قبيح في كل فكر وكل عصر ، وقد تنسم المدنية بقبيح لاترضاه ، ولكنه يتعلق باذياها فتحمله معها فيما تحمل من طبائع الناس .

ومن اهل الشرق من يتصلب عوده تعصباً كلها سمع بالمدنية الغربية . وحق له ان يتتعصب . لان الشرق شقي بالغرب اكبر شقاء ، ولا يزال يشقى . وسوف يشقى .

ولكن الشرق ان شقي باهل الغرب فهو لم يشق بدمتيهم . انه شقي بالذى في طبائع ابناء آدم من اثرة ومن ظلم ومن اجحاف ، واحياناً من سفه وغباء . وهو قد شقي بهذه الطبائع في عقر داره ، ومن اهله وعشيرته واهل السلطان فيه ، فكيف بالغرباء . والشرق

ينسى ان هذه المدنية تجربة يمتحن بها اهلها ، كما يمتحن مقتبسوها ، وان اهل الغرب في محنة منها ، بالذى تأتى به من ضائقات وأزمات ، ومن حروب ، لأنها مدنية لم تبلغ بعد الغاية منها ، وبعض اهدافها قد تحقق ، وسائل أهدافها ينتظر التحقيق .

ومن اهل الشرق من تبلغ به كراهة الغرب الى حد ان يرى ان يقاوم الغرب ، لا ظلمه واجحافه ، واستبداده واستعباده ، ولكن ان يقاومه كذلك فكره ومدنية . وهياهات . ان المدنيات القديمة اخذ بعضها من بعض ، اذا تعادل اقوة ، وقام بعضها على انتقام بعض . ولم يكن في تلك الازمان من تقارب الناس وانصافهم كما بين اهل الارض اليوم من قرب اتصال . ان الطائرة ، وهي تطوف حول الارض اليوم ، تقاد تجاري الشمس سرعة التفاف حول الارض . فكيف يقاوم الشرق العربي ، على ضعفه ، مدنية عارمة واقعة تحت عينه وعند سمعه ، واخبارها اسرع اليه من بعض اخبار قومه .

وما لي اقول في هذا ، والواقع يقول عني فيغنى .

البستان المدنية قد وصلت الى ابعد ما خال المرء ان تصل ، الى الصحراء . الا يوجد في صحاري العرب اليوم بقاع تحملها ، فتحسب انك حللت بخلوها من المدنية في الصيم ؟ وفي المدن ، في بعضها ، السُّت تلقى المرأة محجبة من قمة رأسها الى قدمها ، تنظر الى الدنيا من ثقوب ، فاذا نعلمت ذلك الحجاب تجلت لك من تحنه آخر ازياء باريس ؟ وفي مدن الشرق العامة ، هل ترَكت هذه المدن شيئاً من المدنية لم تأخذه عنها ، من اسلوب بناء ، الى نظام

مصارف ، الى برامج مدارس ، الى قوانين حكم .
ان المدينة الحاضرة فيضٌ غمر لا يقف في سبيله شيء الا اقتلهه .
وهل عندنا نحن اهل الشرق العربي ما نستطيع ان نقيمه في سبيل
هذه المدينة حتى ليقلع ؟ ولست اقول هذا عن تخاذل ، ولا اقوله
عن تسلیم ، ولكن اقوله لاني ارى ان اية مقاومة بجهودٍ ضائعة ،
لا يكون منه الا تأخير اليوم الذي ينتفع فيه الشرق بما انتج
الغرب ، لا من مدينة غربية ، ولكن من مدينة انسانية عالمية
اساسها تحرر الفكر الانساني من قيوده ، وغايتها رفاهة الانسان
واعاداته ، وليس بها ما لا يمكن تأليفه ومطالب الشرق ودينه
وعاداته . والمقاومة يكون بديلاً منها المساهمة ، المساهمة في صياغة
طرق الحياة لاجيال من الارض مقبلة .

.

التشريع الاسلامي والمجتمع الحديث

للدكتور صبحي محصاني

الاسلام والسلموه

ان الاسلام دين وایمان ، وشريعة ونظام . وان اركات الاسلام وتعاليمه سلسلة متينة من القواعد ، التي تشمل امور المسلم ، في علاقته بربه وبنفسه وفي معاملاته مع أخيه الانسان . وهي تحيي احكام التوحيد والعقيدة ، وامور الآخرة وامور الحياة الدنيا جميعاً . فاذن ، الاسلام دين وایمان ، وشريعة ونظام . ومن المؤلم المؤسف ، ان بعض الناس لم يفهموا حقيقة الاسلام فهماً كافياً . فبعض المسلمين اهملوا ذلك في الماضي ، عن تقليد وتجدد وانفاس في التراث ، فكان اهمـ المهم سبب اخطاطهم وجودهم ، وسبب خرابهم ودمارهم .

وبعض المسلمين اليوم ايضاً اهملوا فهم حقيقة الاسلام ، عن جهل او تقصير . فمن باب اولى ان لا يفهمـ على حقيقته بعض المستشرقين او بعض مدعى الاستشرافـ عن جهل باللغة العربية او براجح الشرع الاصيلـ ، او عن تحييز سياسي او تعصب ديني .

فاذن ، الجهل والتغرض هما السببان اللذان طمسا احياناً حقائق التعاليم الاسلامية ، فأخر جاهما بظاهر الجمود والتأخر . وهكذا ، كان لا بد من التنبيه الى ان الاسلام ليس معناه دائماً ما اتبعه المسلمون في وقت من الاوقات ، ولا ما يتبعه بعض المسلمين اليوم . انا الاسلام هو ما ينبغي على المسلمين اتباعه ، وفقاً لنصوصه المقدسة ، وتعاليمه السامية ، ومعاناته الاساسية . فاذن الاسلام شيء ، وما يتبعه بعض المسلمين شيء آخر .

ثم ، لا بد لنا من التصريح بهذه الحقيقة الراهنة ، التي ينبغي لنا ان نفهمها فهماً عملياً واقعياً . وهي ان المسلمين اليوم في زمن لا يمكنهم فيه ، كلا لا يمكن لغيرهم ، ان يعيشوا منعزلين منفردين . فهم على مفترق حاسم من الطرق . فاما ان يتعمقوا في دراسة تعاليم الاسلام ، ويفهموها على حقيقتها ، ويتشربوا روحها ومعناها ، وينهضوا من سباتهم ليسايروا المدنية ، ويتعاونوا والامم المتعددة ، تعاوناً مبنياً على اساس المساواة والاحترام المتبادل ...

وإما ان يصبح المسلمون كما اصبح بعضهم متأخرين جامدين جاهلين . فيكون مصيرهم الفناء لا سمع الله ، او البقاء على ما يشبه الفناء ، وعلى ما يجره كل ذلك من ضرر عليهم وعلى الاسلام . فرأى طريق نتبع ؟ انأخذ بطريق الظلم والذل والانحطاط ، ام نأخذ بطريق النور والتطور والحياة ؟ ايجوز ان يكون الملايين من المسلمين بحالة جهل ، وما يستتبعه الجهل من فقر ومرض وإهمال ، على حين ان الاسلام جعل العلم من فرائضه الواجبة على المسلمين والمسلمات ، وامر بطلب العلم ولو في الصين ؟ نعم ولو

في الصين ، في تلك الايام التي كانت الصين فيها مثلاً للبعد
ونهاية للأسفار .

فاذن ، اذا اراد المسلمون ان ينتسبوا عن حق الى الاسلام ،
فيذبغي لهم قبل ذلك ان يتبعوا تعاليمه الصادقة . وعندئذ يحكم
العالم والتاريخ على الاسلام حكمها الصائب .
اها السيدات والسادة !

اني لا اريد في هذه المناسبة ان ابشر بالاسلام ولا ان اناصر ،
ولا ان اتباهى او افاخر . ولكنني في بحث التشريع الاسلامي
والمجتمع الحديث ، اوَّدَ ان احضر بحثي في ناحية تعاليم الاسلام
الحقيقة ، وان كانت هذه تختلف عما يتبعه بعض المسلمين في الواقع .
وانني منذ البداية ، الفتُ نظر هذا الحفل الكريم بوجه خاص ،
واكرر لفتَ النظر ، الى ان ما سأقوله اليكم اغا هو قول النصوص
الاسلامية وقول بعض رجال المسلمين الذين فهموا الاسلام
والنصوص على معناها القوم ، وفسروها تفسيراً يتلاءم والحياة
الاجتماعية ، في جميع ادوارها واطوارها الزمنية والمكانية . وانني
على كل حال ، سأشهد بأقوال رجال السلف الصالح ، مع بعض
حجتهم ، على قدر ما يسمح به المقام . فمن رأى رأيهم وصوّبه ،
كان له وهم الفضل والثواب ، ومن خالفهم فهو حر في ذلك ،
شرط ان يدرس حجتهم ويحصها وبأنيتني بمحاجج صحيحة تدفع
حجتهم . فأمانة العلم تقضي ذلك ، ولا تقبل القول المجرد . وما
رأيتمنا جميعاً الا تجري الحقيقة والصواب .

فموضوعنا الان هو : هل ان التشريع الاسلامي تشريع وجد

لزمان معين او لمكان محدود او لاحوال مخصوصة ، وانه من ثم حكوم عليه بالجود كادعى بعض الجهة ؟ ام انه تشريع مرن عام ، يلائم كل زمان ومكان ، ويساير كل مدنية وتطور ؟ هذا هو السؤال . والجواب عنه بلا ريب هو الثاني . فالتشريع الاسلامي شامل خالد حيوى ، يصلح للمجتمع الحديث ولكل مجتمع . ومن عوامل ذلك وادنه إباحة الاجتهد وتعدد المذاهب ، والمزاج بين العدل والاحسان وقاعدة تغير الاحكام . ولا بد من ايضاح كل من هذه العوامل والادلة المهمة ، التي هي عماد الشريعة الاسلامية جمعاً .

ابن هارون والمراد الفكري

فمن الادلة الاولى على حيوية التشريع الاسلامي ما نراه في تاريخه من حركات فكرية ، لا بل من ثورات اصلاحية ، قام بها الخلفاء والفقهاء ورجال الدين انفسهم ، ضد الجمود والركود . معلوم ، ايها السيدات والسادة ، ان التشريع الاسلامي تشريع ديني مبنيٌ في اساسه على كلام الله تعالى في كتابه القرآن الكريم ، وعلى سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن بعد وفاة النبي (ص) ، لا سيما بعد الفتوحات الاسلامية ، حدثت قضايا جديدة لم يكن فيها نص لا في القرآن ولا في السنة . فاضطر الفقهاء الى الاجتهد فيها ، واعطائهم الحكم الشرعي المناسب . فان كانت القضية الطارئة شبيهة بقضية سابقة ، بسبب جامع العلة الواحدة بينها ، اعطي لها نفس الحكم قياسا . والا اضطر الفقهاء

إلى التداول والاجماع على الحال الشرعي . ولذا أصبحت ادلة التشريع المقبولة عند جمهور الفقهاء اربعة وهي : الكتاب والسنة والقياس والاجماع .

فاذن ، كان الاجتهاد الوسيلة الاولى في تاريخ التشريع الاسلامي لاجل اظهار حيبته . ودليل ذلك انه بعد ان توقف ازدهار المدينة الاسلامية منذ او اخر الدولة العباسية ، وبعد سقوط بغداد في اواسط القرن السابع للهجرة (اي الثالث عشر للميلاد) اجمع الفقهاء السنّيون على الاكتفاء بالذاهب السنّية الاربعة المعروفة ، اي المذهب الحنفي والمالكي والشافعی والحنبلی ، واجعوا من ثم على سد باب الاجتهاد خوفا من الاضطهاد . وكانت نتيجة ذلك تفشي التقليد ، وكثرة البدع المبنية على الوهم والجهل ، وانتشار اخرافات السخيفة ، والتمسك بالأمور التافهة ، حتى قال بعضهم إن تعلم اللغات الاجنبية او الاكل بالملعقة او الاخذ باي مظهر من المظاهر التي لم يعرفها المتقدمون ، كل ذلك حرام ومحرم . وبكلمة اخرى ، كان وقت تفشي فيه التقليد بكل مسألة من مسائل الحياة ، فاقتى المقلدون بان كل تغيير فيها حرام . وهكذا ، ارادوا ان يقضوا على المسلمين بالبقاء كما كان الاقدمون ، وان يقوضوا على سنة النشوء والارتقاء ، وعلى كل تطور ومدنية . وهكذا ايضا ، كان من حق بعض الاجانب ان ينظروا الى هذه الحالة ، وان يزعموا ان الشريعة الفراء جامدة لا سمح الله وانما لا تتأishi والحضارة الجديدة .

فاذن ، الاجتهاد كان اول دليل على حبوبة الشرع الاسلامي ،

والتقليد كان اولَ مرض اصابه ومنعه من اظهار حيويته . ومرنته .
ففي عصر الاجتئاد نشأت المذاهب الاسلامية المتعددة ، وفي عصر
التقليد قضي على كل تفكير وتدقيق .

وان التاريخ الاسلامي حافل بالشهاد على ذلك . ففي ایام
ال الخليفة عمر بن الخطاب ، بدأ تأسيس الدولة الاسلامية ، وكثُرت
الفتوحات ، وظهرت حاجات جديدة ، اقتضت تغييراً في بعض
الاحکام والفتاوی . فان عمر الفاروق المشهور بعدله وسهره على
مصالح الرعية ، والمشهور ايضا بتقواه وبصلاحه ، ان هم اخذ
يفسر الاحکام والنوصوص حسب روحها ، ووفقاً لحاجات الزمان ،
وافتضاءً لمصلحة المسلمين وللسیاسة الشرعية .

وكذلك أخذ مؤسسو المذاهب يعملون في الاجتئاد ، ويدرسون
الشرعية على اساس علمي . فاثبتو أن الاحکام الشرعية مبنية
على علل وأسباب ، وأن هذه العلل والأسباب جميعها عائنة لمصالح
الناس . وقامت طائفة منهم ، وعلى رأسها الامام الأعظم ابو حنيفة
النعمان ، وأسسوا مدرسة اهل الرأي ، تلك المدرسة التي دفقت في صحة
الاحاديث وحكمت العقل والاستدلال المنطقي في تفسير النصوص
وفي تطبيقها حسب معناها الحقيقي . فقد روی عن ابي حنيفة رحمة
الله انه قال : « اذا لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسوله
نظرت في اقاويل اصحابه ، ولا اخرج عن قولهم الى قول غيرهم .
فاذا انتهى الامر الى ابرهيم والشعبي وابن سيرين والحسن وعطاء
وسعيد بن جبیر ، فقوم اجتهدوا ، فأجتهدوا كما اجتهدوا »
وظلَّ الفقه مزدهراً ما بقي الاجتئاد مفتوحاً . ثم لم يرجع

إلى ازدهاره ، إلا بعد أن عاد الاجتئاد إلى سابق عهده بظهور
الحركات الفكرية الاصلاحية . فهذه الحركات اثبتت أن الاجتئاد
واجب على المسلمين ، وأن التقليد الأعمى حرام . فالاجتئاد كان
الوسطة لاستنباط الأحكام من أدلة الشريعة المنقولة ، كالكتاب
والسنة ، أو من أدلتها المعقولة كالقياس والاستحسان ، وكانت
الوسيلة لاعطاء الأحكام الشرعية المدى الذي تطلبه المعاملات
المستحدثة وال حاجات الاجتماعية الجديدة ، فكان الاجتئاد لذلك
عاملًا ضروريًّا في تاريخ نشوء التشريع .

وقد بدأت النهضة الفكرية الشرعية العصرية في القرنين السابع
والثامن للهجرة (اي الثالث عشر والرابع عشر للميلاد) . وأشهر
من قام بها الإمام الحنفي تقي الدين أحمـد بن تيمـية صاحب الفتاوى
المشهورة وصاحب مجموعة الرسائل الكبـرى ورسالة معارج الأصول
ومنهاج السنة وغيرها ، ثم تلميذه أبو عبد الله بن بكر الزرعـي
الدمشـقي المعـروف بـ ابن قـيم الجـوزـية مؤـلف كتاب اعلام المـوقـعين
عن ربـ العالمـين ، والطرقـ الحـكمـية فيـ السـيـاسـةـ الشـرـعـيةـ ، وزـادـ
المعـادـ فيـ هـدـيـ خـيـرـ العـبـادـ وـغـيرـهـ . وـقـدـ جـدـدـ هـذـانـ وـأـمـثلـهـماـ
درـاسـةـ المـذـهـبـ الحـنـفـيـ عـلـىـ ضـوءـ النـقـلـ وـالـفـقـلـ . وـاشـهـرـواـ بالـاجـتـئـادـ
وـبعـدـ التـمـسـكـ بـالـقـيـاسـ .

وقد اتى اجتئادهم مبنياً على نصوص الشرع الاصيلة الصافية
المجردة عن الزيادات الاجتهدية القديمة . في جاء اجتئاداً يوافق
النظريات العصرية ان لم يكن يمتاز عليها في كثير من المسائل ،
ومن ذلك ما جاهر به ابن القيم من نظريات ، كمحاربة التقليد

والجمود ، واعتقادِ القصد في التصرفات ، وحرمة التعاقد ، ومنع
الحيل في الأحكام ، واحياء اعمال الفضولي المحسن ، والمحافظة على
حقوق الغرماء ، والتوسيع في اصول البيانات كقبول شهادة الشاهد
الواحد العدل ، وعدم تجزئته الاقرار وما اشبه من النظريات التي
يعرفها رجال القانون اليوم . إلـ

ثم قام في القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد)
الامام محمد بن عبد الوهاب بمحركته الاصلاحية الوهابية في نجد ،
وكان من مجدهي المذهب الحنبلي بعد ابن تيمية وابن قيم الجوزية ،
ومن القائلين بالدعوة السلفية ، التي ترجع في اصول الدين الى
القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وتحارب التقليد الاعمى « الذي
قتل في الامة الاسلامية التفكير الجدي ... وقتل فيها روح
الاستقلال ... واطفاً فيها جذوة النشاط » ، تلك الدعوة التي
تبذر ما كان من جراء ذلك من التعلق بالشرح والمتون والآراء
والاهواء ، وما كان من البدع الدينية كتقديس الكتاب وعبادة
القبور والرقص وقرع الطبول ، وما الى ذلك بما يتناهى وروح
الاسلام الحقيقة .

ومن الطبيعي ان يثور الجهل على كل جديد وعلى كل اجتهاد
وعلى كل ما خالف التقليد والتقاليد ، فقد اضطهد او لئك المصاجون
اضطهاداً كبيراً ، حتى ان ابن تيمية وابن القيم قد سجنوا في قلعة
دمشق ومات ابن تيمية وهو في السجن .

وهكذا نرى ان الدعوة السلفية او مذهب السلف الصالح هي
الدعوة التي ترجع في اصول الشريعة الى القرآن الكريم والسنة

الصحيحة وتنبذ التمسك بمذهب من المذاهب او برأي من الآراء، او باجتهاد من الاجتهادات . وقد تابع هذه الدعوة في القرن التاسع عشر السيد جمال الدين الافغاني وتلميذه الامام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية رحمة الله ، وهذان نشرا مبادئها وتعاليمها في مجلة العروة الوثقى في باريس ، ومجلة المنار في مصر ، وفي كتب ورسائل ومحاضرات عديدة . وقد ذهب هذان المصلحان وتلامذتها من بعدهما الى محاربة الجمود والخرافات والبدع ، والثورة على كل تقليد اعمى ، لأن « المقلدين من كل امة - كما جاء في عبارة العروة الوثقى - المنتهيلين اطوار غيرها يكون فيها منافذ وقوى لنطريق الاعداء اليها ، وتكون مدار كهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس » فاذن ، التقليد الاعمى الجامد لا يضر الدين فحسب ، بل هو مرض يفتكم بكرامة الامة وباستقلالها .

وفوق هذا يرى اتباع مذهب السلفية لزوم توحيد المذاهب الاسلامية المختلفة وعدم التقليد بمذهب واحد ، لانه ، كما قالوا ، « لن يستطيع شعب اسلامي ان يتحمل انتقال تقليد المقلدين لمذهب واحد ، ولا ان يجعلوا مصالحهم الزوجية والمالية والمالية منوطه بهمهم اكتب مذهب واحد في عصره ويسره ». فالشرعية الاسلامية ليست مذهبًا بل هي جموع المذاهب من دون تقليد او تضييق . وهكذا ، نحن نرى على الجملة ، ان الاجتهاد كان ولا يزال العامل الاول لحيوية الشرع الاسلامي ، ثم يأتي بعد هذا العامل ما نتج عنه من تعدد المذاهب الفقهية .

نعدد المذاهب الفقهية

فتعدد المذاهب إذن كان نتيجة لاباحة ، لا بل لواجب ، الاجتهاد في الشرع الاسلامي . ومن الامور الظاهرة في تعدد المذاهب الفقهية الاسلامية ان الطريقة التي اتبعها الفقهاء في اجتہادهم واستدلالهم هي الطريقة التحليلية فيها يتعلّق بالنصوص ، وهي الطريقة الاستقرائية فيها لا نص عليه . اي ان الفقهاء كانوا يأخذون النص كقاعدة ، ثم يفسرونها ويجملونه ، ويستخرجون منه النتائج والفروع . اما اذا لم يكن من نص في المسألة ، فانهم كانوا حذرين يقطّعين ، خائفين في البدء من وضع القواعد العامة ، لئلا يصطدموا بالنصوص المقدسة . فكانوا يدرسون القضية التي تعرض عليهم او التي كانوا يستعرضونها اثناء ابحاثهم ، ويجتهدون في استنباط الحل اللازم بالقياس او بالاجماع او بغير ذلك من الادلة الشرعية . فكان اجتہادهم مبنياً على الاستقراء والخبرة ، وعلى التأني والحذر . وهذا يفسر لنا السبب في ان الفقهاء المسلمين بوجه عام درسوا نظرية الجرم ونظرية العقد في ابواب الجرائم والعقود المختلفة . ولكن هذا لم يمنع المتأخرین منهم عن استخلاص القواعد الحقيقة الاساسية ، ودرسها درساً علمياً مستفيضاً .

وعلى الاجمال ، لم يكن الخلاف بين المذاهب المختلفة خلافاً على المبادىء والتعاليم الاساسية ، بل كان بوجه عام واقعاً على الفروع ، بمناسبة تطبيق المبادىء على القضايا العملية . فاذن ،

بوجه عام ، يعتبر اختلاف المذاهب شيئاً باختلاف المحاكم اليوم ، في تفسير بعض النصوص او القواعد ، عند تطبيقها على الدعاوى المعروضة عليها . او بكلمة ثانية ، اختلاف المذاهب هو اختلاف في تطبيق القاعدة على القضايا العملية ، كاختلاف المحاكم اليوم في اجتهادها القضائي . واني اقول ذلك بوجه عام ، لانه في بعض المستحبات القليلة ، كان الاختلاف واقعاً على المبادئ ايضاً . واني اورد مثلاً على ذلك لنرى نوع الخلاف في هذا الامر .

لقد اتفق الفقهاء على ان غاصب الشيء يلزم الملاك ان يرده الى صاحبه عيناً . واما استهلك الغاصب الشيء ، او تلف او ضاع ، كان عليه اعطاء مثله ، ان أمكن ، والا اعطاء قيمته . هذا لا خلاف عليه بين الفقهاء . ولكن لما كانت قيم الاسعار تتقلب مع الزمان والامكنة ، وجب تحديد الوقت والمكان اللذين يُنظر اليهما عند تعين قيمة المغصوب . فقال الحنفيون انه يُنظر في ذلك الى زمان حصول الغصب ومكانه . وقال الحنبليون انه يُنظر الى وقت حصول التلف ومكانه . اما في المذهب الشافعى ، فيتضمن الغاصب المغصوب باقصى قيمته من وقت الغصب الى وقت التلف . هذا مثل عن اختلاف المذاهب . فالجميع متتفقون على ان الغاصب يلزم دفع القيمة ، ولكنهم اختلفوا على التفصيلات المتعلقة بطريقة تقدير هذه القيمة ليس إلا .

وقد ابتدأ الخلاف بين المذاهب الاسلامية في تفسير بعض آيات القرآن الكريم ، ثم في تفسير السنة ، وفي طرق التحقيق عنهم وشروط قبولها ، ثم ازداد هذا الخلاف في الاجماع والقياس ، إذ

ان بعض المذاهب رفضتها او تشددت في قبولها .
و كذلك حصل الخلاف بين المذاهب ايضاً بشأن بعض الأدلة
الاخري . فالمذهب الحنفي مثلاً قيل بالاستحسان كدليل خامس ،
ومذهب المالكي اخذ بدليل المصالح المرسلة ، والمذهب الشافعى
اخذ بالاستدلال او استصحاب الحال ، وهكذا ، كما سنوضح فربما .
وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان بين الفقهاء المختلفين مناظرات
وجادلات ، ومطالعات ، ومصنفات . وكان بينهم تأثير متبادل ،
حتى ان آراء المذاهب المختلفة قد تشابكت احياناً ، ولم يبق اختلاف
المذاهب صارماً واضحاً . ففي كثير من المسائل مثلاً ، نرى
تلامة اي حنفية يخالفونه ، ويتبعون اجتهاداً موافقاً لاجتهاد باقي
ائمة المذاهب ، كما نرى مثلاً في مسألة جواز الحجر على السفينة ،
اي المبذر ، فقد قال ابو حنيفة بعدم جواز الحجر عليه وقال
تلاميه وباقى ائمه المذاهب بجواز ذلك .

وعلى كل ، فقد كان اختلاف المذاهب من اسباب مرونة
الشريعة الاسلامية وتطورها ، ومن اسباب التيسير على الناس ،
حتى قيل ، كما جاء في عنوان كتاب الدمشقي : « رحمة الامة في اختلاف
الائمة » . فالدولة العثمانية مثلاً كانت تطبق المذهب الحنفي في
القضاء والفتيا . ولكنها ، رغم ذلك ، اخذت ببعض المذاهب
الاخري في كثير من المسائل : ففي المذهب الحنفي مثلاً يعتبر
الطلاق نافذاً اذا صدر عن رجل سكران ، او على اثر الاكرام .
ولكن هذا الحكم وُجد فيه حرجٌ كبيرٌ وضررٌ على الناس ،
لذلك اخذت الدولة في قانون العائلة العثماني (الذي يطبق اليوم

على السنين في لبنان) بقول الشافعي ، واعتبرت أن مثل ذلك الطلاق غير معتبر ، لأن السكران والمكره لا نية لها ، ولأن النية هي ركن التصرفات الشرعية جميعاً .

وان الفقهاء المسلمين قد ترکوا في المذاهب الاسلامية المختلفة كنوزاً فكرية ثمينة ، كانت ثرة الجهد الجبار ، التي قاموا بها في هذا العلم وزبدة الافكار القيمة التي توکوها . وقد نتج عن اختلاف المذاهب تعدد في النظريات ، بحيث نجد فيما ما يشابه معظم احكام القوانين العصرية، ومن ثم ، نرى أن البلاد الاسلامية بإمكانها إذا أرادت اقتباس بعض القوانين العصرية ، تتشابه مع حاجات الزمن ، أن ترجع إلى المذاهب الاسلامية المختلفة ، فتتجدد فيها ما يوافق تلك القوانين العصرية ، أو ما يقرب منها ، فتتعدد المذاهب ، اذن ، كان من اسباب مرونة الشريعة الاسلامية ومن اسباب قابليتها للتطور مع المجتمع الحديث .

وكما ان تعدد المذاهب كان نتيجة للاجتهاد ، فكذلك كان هو ايضاً سبباً لتعدد ادلة التشريع ، وتوسيع نطاق احكامه؛ ومن ثم لزيادة مرونة هذه الاحكام .

التوسيع في الادلة وتأثير العدل المطلوب

فنجحن اذن نصل الآن الى سبب ثالث من اسباب مرونة الشريعة الاسلامية . وهو تعدد ادلة الاحكام ، وتوسيع المذاهب في تقبيل مصادر جديدة للتشريع ، كالاستحسان عند الحنفيين ، والمصالح المرسلة عند المالكيين ، على ما سنوضح قريباً .

وكل هذه الادلة الجديدة راجعة الى الرأي و إعمال العقل ،
وابناء العرف والعادة ، والى درس علل الاحكام ، وابناء
ما تقتضيه مصلحة الناس في حياتهم الاجتماعية ، ومراعاة اقرب
الاشيء الى الخير المطلق ، وما يوحده العدل والانصاف .

فالعدل الحقيقى والانصاف هما اساس التشريع الاسلامي ،
لانه تشريع شامل ، يضم بين أحکامه قواعد الدين والأخلاق
وقواعد المعاملات الاقتصادية ، فكان طبيعياً أن تتشابك هذه
الاحکام فيما بينها ، ويتأثر بعضها بالبعض الآخر . وكانت طبيعياً
 ايضاً أن تتأصل هذه الاحکام في النفوس ويقوى احترامها ، على
 ما في مراعاتها من حفاظة على مرضاة الله والعباد .

فلهذا كله ، جمع العدل والاحسان في آية واحدة ، هي :
« إن الله يأمر بالعدل والاحسان » ، وسار الاثنان معاً حتى
اصبحا بمنزلة المترادفين ، وصار من العدل ان لا يضر المرء اخاه ،
وأن لا يحب له الا ما يحب ل نفسه ، وصار من واجبات المعاملات
الامانة والنصححة والصدق . وكان من توابع استيفاء الحقوق
الاحسان والمساحة والاموال .

وكذلك ، بنى الفقهاء على هذا المزاج بين العدل والاحسان
نظريه سوء استعمال الحقوق ، ونظرية مكافأة الفضولي في بعض
الاحوال وفاقاً للآية الكريمة « هل جزاء الاحسان الا الاحسان »
ووفقاً للحديث الشريف « من اسدى اليكم معرفة فكافئوه ».
وبنوا عليه ايضاً تقوية الاحکام القضائية بما توجبه الديانة ، حتى
صار التفريق في الحكم قضاء والحكم ديانة شبيهاً بتفريق علماء

القانون اليوم بين الموجبات المدنية والموجبات الطبيعية ، وصار هذا التفريق رقيباً على استعمال حقوق الانسان، مثاله: قال الفقهاء اذا جاز للرجل ان يطلق امرأته قضاءً فيجب لصحة الطلاق ديانة ان يكون مستندآ الى مبررٍ وجيهٍ ، والا كان دليلاً على الحق ، وكفراً بنعمة الزواج المبنية على المودة والرحمة .

ثم ان الفقهاء اخذوا من مبادئ العدل والانصاف مصدراً للتشريع ، امهاء الحنفيون الاستحسان وامهاء المالكيون المصالح المرسلة . ونحن ، دون ان ندخل في تفصيلات علم الاصول ، ثبت ان هذه الادلة الجديدة كانت وسيلة لادخال كثير من الاحكام المبنية على العرف والعادة والضرورة ، والتي كانت مخالفة للقياس والاجماع . وكذلك لم يتورع الفقهاء ، لا سيما الحنفية ، من الاتجاه الى الحيل الشرعية لاجل التهرب من تطبيق بعض الاحكام ، ولاجل السعي للتقریب بين تلك الاحكام وبين ضرورات الحياة الاجتماعية الجديدة .

فالخلاصة أن توسيع الفقهاء في كل هذه المصادر والادلة كانت نتيجةً للاجتہاد ولتعدد المذاهب ، وكان سبباً آخر لمرنة التشريع الاسلامي ، ولتعديل بعض احكامه وفقاً لتطورات المجتمع . وان كل هذه الاسباب ، من اجتہادٍ او تعددٍ في المذاهب ، او توسيع في ادلة التشريع ، او سعي وراء العدل المطلق ، ان كل هذه الاسباب ادت الى قاعدة اساسية من قواعد التشريع الاسلامي ، وهي قاعدة تغيير الاحکام . واننا نوضح هذه القاعدة المهمة ايضاً وجيزاً .

تغير الادمهام

قال ابن خلدون في مقدمته : « ان احوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وثيرة واحدة ومنهاج مستقر . انا هو اختلاف على الايام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال . وكما يكون ذلك في الاشخاص والاقوام والامصار ، فكذلك يقع في الآفاق والاقطارات ، والازمنة والدول ، سنة الله التي قد خلت في عباده » .

وان هذه الحقيقة الاجتماعية تستتبع بلا مرأء تبدل مصالح الناس بتبدل مظاهر المجتمع . ولما كانت مصالح العباد اساس شريعة المعاملات ، كان من اللازم ان تبدل الاحكام الشرعية وفق تبدل الزمان ، وان تتأثر بظاهر المحيط والبيئة الاجتماعية ، مع مراعاة حكمية الشريعة السمحنة ونصوصها .

وان الفقهاء قد اخذوا بهذه القاعدة . فاثبتهما كتاب الجامع وبحلة الاحكام العدلية بقولهما : « لا ينكر تغير الاحكام بتغير الازمان » . وهو قول يجب ان يزداد عليه تغير الامكنة والاحوال ، كما اوضح ابن قيم الجوزية وغيره من علماء الشرع والاجتاع .

ولاجل تطبيق هذه القاعدة على احكام الشريعة الاسلامية ، وجوب التفريق او لا بين قواعد العبادات وقواعد المعاملات الدينية . فقواعد الدين الاسلامي والاحكام المتعلقة بالعبادة قواعد ثابتة ، بعبارة الفقهاء ، « ما دامت الارض ارضاً والسماء سماء » ، لات اصول الدين وقواعد التوحيد والايمان والعقيدة كلها حقيقة ازلية

ابدية خالدة ، واحدة في جميع الامصار والاعمار .

اما اذا كان الامر يتعلق بقواعد المعاملات الدنيوية ، وجب ايضاً التفريق بين الاحكام المبنية على النصوص والاحكام المبنية على الاجتهداد . فالاحكام الشرعية المبنية على اجتهاد الفقهاء والتي لا نص عليها لا في القرآن الكريم ولا في السنة الشريفة ، فـلا خلاف بين فقهاء المذاهب جميعاً على انها قابلة لاجتهداد مختلف ، ومن ثم قابلة للتتعديل والتغيير وفق مصالح الناس وحالاتهم ، ووفقاً ظروف المجتمع والمكان والزمان . وقد ذكر الفقهاء امثلة عديدة من تغيير الاحكام ، لانزى مجالاً لذكرها لعدم وجود الخلاف بشأنها .

اما الخلاف بين الفقهاء فقد كان في مسألة تغيير احكام المعاملات الثابتة بالنصوص . فقد قال جهور الفقهاء بأنه لا تجوز خالفه مثل هذه الاحكام الا في احوال الضرورة . ودليل الترخيص للضرورة الآيات الكريمة « وما جعل عليكم في الدين من حرج » . « فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فان الله غفور رحيم ». « يريد الله بكم البسر ولا يريد بكم العسر » ، ودليل الترخيص للضرورة ايضاً الاحاديث الشريفة « الدين يسر » . احب الدين عند الله الحنفية السمححة « يسروا ولا تعسروا ، بشرروا ولا تنفروا ». وعلى هذا قال الغزالى رحمه الله : « جميع المحرمات تباح بالضرورة » ، وقال القاضي الحسين « المشقة تجلب التيسير » ، وجاء في القواعد الكلية الواردة في كتابي الاشباه والنظائر للسيوطى الشافعى ولابن نجيم الحنفى وفي مجلة الاحكام العدلية « الضرورات تبيح المحظورات » .

وان الأمثلة على تطبيق هذه القاعدة عديدة لا حصر لها في كتب الفقه جميعاً .

فاذن ، لا خلاف على ان احكام الشريعة الثابتة بالنصوص لا تطبق في احوال الضرورة والمشقة . وقد روی عن الامام الشیخ محمد عبد رحمة الله انه سئل عمما اذا كان يجوز للمسلمين تعاطي معاملات المصارف والمصافق (اي البنوك والبورصات) من حسم واستدانة ودفع فائدة ، فقال لهم اذا كان المسلمون لا يمكنهم معاطاة التجارة واكتساب الرزق الا بالتعامل مع المصارف فذلك جائز لهم بالضرورة وعلى قدر الضرورة .

وعلى كل ، فالمسألة الخلافية بين الفقهاء كانت في جواز تغيير احكام المعاملات الثابتة بالنصوص في غير احوال الضرورة . ففي هذه الحالة ، قال جمهور الفقهاء بتحريم التغيير والتعديل . وقال البعض بجواز ذلك في هاتين وهما : او لا زوال علة الحكم الشرعي . وثانياً تغيير العرف والعادة . واليمك شرح هاتين الحالتين مع بعض الأمثلة عليها .

اولاً - زوال علة الحكم الشرعي .

ولاجل تفهم هذه المسألة، لا بد لنا من الاشارة الى ان مسائل المعاملات في الشريعة الاسلامية، وفي كل شريعة قديمة او حديثة، مبنية على مقاصد معروفة ، وان هذه المقاصد تهدف الى جلب المنافع للناس ودرء المفاسد عنهم ، وان هذه العلل هي اساس الاحكام ، بحيث انه اذا زالت العلل او تغيرت وجب زوال او تغيير ما بني عليها من الاحكام . فلذا قيل في القواعد الاصولية :

« ان الحكم الشرعي المبني على علة يدور مع علته وجوداً وعدماً ». مثال ذلك جاء في الآية الكريمة « انا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها المؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ». وان المؤلفة قلوبهم هم الذين كان النبي(ص) يعطيهم من الصدقات ليتألفهم على الاسلام لضعف ايمانهم ، او لدفع شرم ، او لعلو منزلتهم في قومهم .

وعلى الرغم من هذا النص القرآني الصريح ، فقد لغى عمر بن الخطاب رضي الله عنه حصة المؤلفة قلوبهم من الصدقات . وردهم بقوله : « **هذا شيء** . كان رسول الله يعطيكموه لبناً لكم على الاسلام ، والآن فقد اعز الله الاسلام واغنى عنكم ، فان **ثبتم** على الاسلام والا فيبيننا وبينكم السيف . انا لا نعطي على الاسلام شيئاً ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

فهنا بني النص على علة هي نصرة الدعوة الاسلامية في بدء الاسلام ، ولكن هذه العلة زالت بعد ان قويت شوكة الاسلام في ايام عمر بن الخطاب . لذا اعتبر ان الحكم الشرعي المبني على تلك العلة قد زال بزوالها . فهذا النص القرآني الصريح اعطاء ابن الخطاب تفسيراً جديداً ، وعدل الحكم المبني عليه تعديلاً يأتلف ومحكمة التشريع ومقصد الشارع .

والحالة الثانية لتعديل الاحكام او تعديل تفسيرها عند بعض الفقهاء هي حالة تغيير العرف والعادة . ومن امثلة ذلك ان العادة جرت في ايام النبي (ص) على تعيين البر (اي الحنطة) والشعير بالكيل ، لذا جاء في الحديث الشريف « البر بالبر كيلاً بكيل

والشعير بالشعير كيلاً بكيل ، . ولكن هذه العادة تغيرت في أيام قاضي قضاة بغداد أبي يوسف ، فاصبح الشعير والخطة من الموزونات وصار التعامل على بيعها بالوزن لا بالكيل . فهل ان هذه العادة المستحدثة مردودة لتعارضها مع النص ؟ وهل ان عقود البيع المحررة على اعتبار هذه الاشياء من الموزونات باطلة ومحرمة ؟ كلا ولا شك ، وهذا ما افتى به أبو يوسف ، مستندًا الى ان النص كان مبنياً على العادة وأنه يصح تفسيره تفسيرًا مختلفاً بحيث يتلامم العادة الجديدة . فهذا ولا شك تعديل ضمني للأحكام الشرعية المتعلقة بالمعاملات .

هذه بعض الامثلة من تغيير الاحكام ، وإن من نظائرها امثلة أخرى عديدة ذكرها الفقهاء في كتبهم وفتاويمهم . وهي تستند إلى سابقات واجتهادات معتبرة ، قعود إلى بعض الخلفاء المشهورين كعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وإلى بعض الآئمة امثال أبي يوسف الحنفي ، وشمس الدين القرافي المالكي ، ونجم الدين الطوفي الحنفي وغيرهم .

ولابد من التنبيه إلى أمر وهو أن مجال الخلاف بين الآراء المتباينة في مسألة تغير الاحكام المبنية على النصوص هو مجال بسيط ، الان النصوص المتعلقة بالمعاملات قليلة جداً بالقياس إلى النصوص المتعلقة بالعبادات . وبها يضيق هذا المجال أيضًا الملاحظات الآتية وهي :

أولاً – ان الاحكام المعرضة للتغيير والتعديل تتعلق بالجزئيات دون القواعد الكلية التي تبقى مبدئياً ثابتة واحدة في جميع

الامكنة والازمة .

ثانياً - ان بعض النصوص التي نسبت الى السنة ليست منها بشيء . فقد كثر وضع الاحاديث الكاذبة في بعض عصور التاريخ الاسلامي ، خدمة للسياسة وتأييداً للحزبية ، او لغير ذلك من الاسباب . وهكذا رُويت احاديث سخيفة يأبها المنطق والعقل السليم . وبهذا صدق قول النبي (ص) « سيكون في آخر امي اناسٌ يحدثونكم ما لم تسمعوا انتم ولا آباءكم فاياكم واياهم . » ومن امثلة الاحاديث الموضعية : « الباذنجان شفاء من كل داء . الضب كان يهودياً عاقاً فمسخ ، الخنزير عطسة الفيل وما اشبه . »

ولا شك في أن وضع الاحاديث على هذه الصورة قد اساء الى الشريعة الاسلامية ، ولقد اوحى ابو حنيفة وامثاله ، اذ لم يقبلوا الاحاديث الا بعد تجิصها الدقيق على ضوء العقل والمنطق . ولقد صدق ابن تيمية بقوله : « ان صحيح المنقول (اي المنقول عن النبي) في الشرع الاسلامي موافق دائماً لتصريح المعمول . اي انه جعل العقل مقياساً لصحة النقل . »

ثالثاً - ان بعض نصوص الحديث الصحيح التي تعود الى معايش الدنيا والتي ذكرها النبي (ص) على سبيل الرأي ليست واجبة الاتباع . ودليل ذلك ما رواه مسلم في صحبيه ان النبي (ص) مرّ بقوم يأبون النخل فسأل « ما يصنع هؤلاء؟ ». فقيل لهم يلقوهن النخل . فقال : « لو لم يفعلوا لصلاح ، فاخبروا بقوله ، فتركوا التلقيح ، ولكن لم ينضج الثمر . فلما علم النبي

(ص) بذلك قال : «إذا أنا بشر ، اذا امرتكم بشيء من دينكم فيخذوا به ، وإذا امرتكم بشيء من رأيي فاغدا أنا بشر .» «انت اعلم بما مررتكم به .»

رابعاً - ان تطبيق قاعدة تغيير الاحكام لا يعني تغيير النصوص لاصح الله . فالنصوص مقدسة لا يجوز مسها بحال من الاحوال . ولكن القصد من التغيير هو تغيير التفسير والاجتهاد بهذه النصوص ، على ضوء تغير العلل والعادات التي بنيت عليها .

فاذن ، نحن نرى أن ما زعمه بعض المستشرقين من ان الشريعة الاسلامية مقضى عليها بالجود قول فاسد . فقد اثبتنا فيها مرّ اموراً نلخصها كالتالي :

اولاً - ان الاجتهاد واجب في الشريعة الاسلامية وان التقليد الاعمى حرام .

ثانياً - ان الشريعة الاسلامية ليست مذهبًا واحداً ، بل هي بمجموع المذاهب ، فعلى من اراد درسها وفهمها وتطبيقاتها ان يأخذها بمجموعها وان يختار ما هو مناسب منها [روح الشريعة وطبيات الناس والمجتمع] .

ثالثاً - ان توسيع الفقهاء في ادلة التشريع ومصادره والأخذ بمبادئ الانصاف المطلق بطريق الاستحسان والاستصلاح ، كل ذلك كان له اثر في جعل الشريعة الاسلامية من اعدل الشرائع واقربها الى المثل الاجتماعية العليا .

رابعاً - ان قاعدة تغيير الاحكام تطبق في جميع المسائل التي لا يوجد فيها نص ، من القرآن او السنة ، وتطبق في المسائل القليلة

التي يوجد فيها نص وذلك بحالتين : الاولى اذا كان النص من نوع السنة العائدة الى معايش الدنيا ، والثانية بحال الضرورة والمشقة وذلك بجماع الفقهاء . اما في باقي الاحوال فيجوز ان تفسر النصوص تفسيراً جديداً عند بعض الفقهاء اذا كانت هذه النصوص مبنية على علة قد زالت او على عادة قد تغيرت .

وعلى الاجمال ، نحن نرى من كل ما قدمناه ان التشريع الاسلامي تشريع مرن قابل لان يكون تشريع كل زمان ومكان ولان يساير حاجات المدينة الطارئة واحوال المجتمع الحديث . على أن هذه المرونة لا تعني ان الاصلاح والتغيير في دراسة احكام المعاملات في الشريعة الاسلامية جائزان بطريق الثورة والتهور ، بل اغا ينبغي ان يكون ذلك بطريق التطور التدريجي عن طريق الاجتهاد بواسطة من يتصرفون بصفات المجتهد ، وان يكون ذلك بحيث تجري المحافظة على نصوص الشريعة المقدسة وعلى حكمتها السامية وتجربي الموازنة بين اساسات هذه الشريعة الثابتة الحالة ، وبين مقتضيات المجتمع الحديث .

المدرسة العربية

شأنها، سيرها، واتجاهاتها



للأستاذ احمد سامح الخالدي

ان المتتبع للتاريخ التعليم عند العرب منذ فجر النهضة العربية عند ظهور حضرة صاحب الرسالة تكتشف له بعض حقائق كبرى تستطيع تلخيصها فيما يأتي :

اولاً - ان التعليم عند العرب كان منذ الدعوة الاسلامية جزءاً من المدنية العربية الاسلامية ، وقد ظل كذلك طيلة القرون حتى يومنا هذا ، ولكنها كان يتطور حسب الزمان والمكان والعوامل السياسية والاجتماعية والخ ... في الماداة والاسلوب ، وطراز المعمار وكتب التدريس والمعلمين وشروط الواقفين الخ ...

ثانياً - انه اي نظام التعليم كان يؤلف مجموعة من المؤسسات التعليمية العامة ترخص لقوانين وانظمة واصول ، اشار الى بعضها ابن سحنون والقابسي ، وقد الفت هذه المجموعة نظاماً عاماً ، له صفات وميزات . وليس بضرائر ان لا ينطبق هذا النظام على

ما يبيس العصر الحاضر . وكانت الدولة تشرف على هذا النظام وتكليفه وتسيره ، تبعاً لاهداف معلومة وغایيات مقصودة ، وكان هذا النظام يشمل حلقات الدروس في المساجد والمكاتب او الكتاتيب اي المدارس الابتدائية حسب عرف اليوم ، والبيوت (١) وبيوت الحكمة ودور العلم ، فالمدارس وهي الكليات او الجامعات بعرف اليوم والمدارس (٢) ودور القرآن ، دور الحديث ، دور القرآن والحديث ، دور الكتب او خزائن الكتب والزوايا والخانقاهات فالتالي كما يراهنها رستانات والاستبارات دور المرضى دور الشفاء وبيوت المرضى وكان الطب يدرس فيها ، هذا بالإضافة الى مدارس الطب التي كان منها في دمشق والبصرة وبغداد ، وبعض المدارس الخاصة كمدارس النحو ومدارس المكفوفين والابيام . كما كان هنالك اربطة خاصة بالارامل والعوانس والمطلقات والمخلفات مع ازواجهن الى آخر ذلك من المؤسسات الاجتماعية التي كانت بالإضافة الى عملها الاجتماعي تقوم بتدريس الدين واللغة والفلسفة بل واللغة الاغريقية وبالتربيـة الروحية عن طريق التصوف والتجرد .

ثالثاً - وليس بصحيح ابداً ان هذه المؤسسات كانت من عمل الافراد ، كما يدعى بعض من تعرضوا للدراسة هذه الناحية من توارث العرب الثقافية سواء من العرب او الافرنج . بل الصحيح

(١) ورد ذكرها في اواخر المئة الاولى للهجرة في الاغاني ، ارشدني اليها الصديق العلامة جبرائيل جبور .

(٢) المدراس او المدرس هو البيت الذي يدرس فيه القرآن .

الثابت ان الكتاتيب وهي المدارس الابتدائية كانت حتى في العهد الاول، عهد الخلفاء الراشدين، تؤلف جزءاً من النظام التعليمي القائم وكان الخليفة يشرف عليها بنفسه . ولدينا نصوص تثبت ان ابا بكر فضلاً عن عمر ومن جاء بعدهما كانوا يدخلون بأنفسهم الصبيان الى الكتاتيب بل كانوا يهتمون بتعليم ابناء الموالي واسرى الحروب . ثم تطور الامر فنشأت البيوت في العهد الاموي وبيوت الحكمة ودور الحكمة ودور الكتب ودور العلم في العصر العباسي فالعصر الفاطمي ، كما اخذت تنشأ المدارس العامة على نطاق واسع في القرن الرابع مع ورود ذكرها في القرن الثالث . وكذلك الرابط والزوايا والبيمارستانات في العهدين الاموي والعباسي ، واستمر الامر كذلك بل تنظم واتسع في العهد النوري فالابوبي فالمملوكي فالعثماني . ومشى مع ذلك نسخ الكتب والاعتناء بها وفتح دور الكتب منذ العهد الاموي ، واستمر التنافس في اقتناه الكتب والتفنن في كتابتها في جميع العصور الاسلامية قاطبة .

رابعاً - وكانت الدولة تشرف على هذه المؤسسات وتنفق عليها وتغدق على الطلاب والمدرسين والمعيدين والأئمة المطاباة واللبسة والطعام على نظام مقرر في شروط وقف العائد . وكان القاضي في العصور المختلفة يشرف بنفسه على اوقاف المدارس والربط والبيمارستانات ويراقب كل ذلك ويعيد الحق الى نصابه حتى بعد مرور قرون عديدة . ولدينا نصوص كثيرة عما ذكرت اضرب صفيحاً عنها فليرجع الى صبع الاعشى وكتب الطبقات

وابن خلدون وابن جبـــير وابن بطوطة والنعمي وابن بدران وابن سحنون والقابسي وابن النديم وابن ابي اصيـــعه وال حاجـــي خليفة الخ .. فيـــيـــوت الحـــكـــمة العـــبـــاســـية مثـــلاً التي ظـــهرـــت بـــيـــن النـــهـــرـــيـــن تـــرـــجـــع جـــذـــورـــهـــا إـــلـــى ما قـــبـــل الـــاســـلام عـــنـــد الســـرـــيـــان خـــاصـــة ، كـــانـــت مؤـــســـســـات عـــامـــة ، وـــدـــوـــر الـــعـــلـــم وجـــذـــورـــهـــا اغـــرـــيقـــيـــة ولـــدـــت فـــي العـــرـــاق وـــنـــقـــلـــهـــا الفـــاطـــمـــيـــوـــن ســـرـــيـــعاً فـــي الـــقـــرـــن الـــرـــابـــع الـــهـــجـــرـــي وـــحـــولـــهـــا إـــلـــى مـــراـــكـــز عـــلـــمـــيـــة وـــمـــراـــكـــز دـــعـــاـــيـــة منـــ الطـــرـــاز الـــأـــوـــلـــ . وـــإـــكـــنـــهـــا كـــانـــت جـــزـــءـــاً منـــ الـــمـــظـــهـــات اوـــ الـــمـــؤـــســـســـات التـــعـــلـــيمـــيـــة العـــامـــة ، وـــكـــانـــ يـــشـــرـــف عـــلـــيـــهـــا دـــاعـــي الدـــعـــاـــة ، وـــكـــانـــت مـــنـــتـــشـــرـــة فـــي ســـائـــر انـــحـــاء الدـــوـــلـــة الفـــاطـــمـــيـــة (على رـــوـــاـــيـــة المـــقـــرـــيـــيـــ فـــي خـــطـــطـــه) فـــي مـــصـــرـــ وـــالـــشـــام وـــمـــنـــ اـــهـــمـــها فـــي هـــذـــهـــ الـــدـــيـــارـــ دـــارـــ الـــعـــلـــمـــ فـــي الـــقـــدـــســـ وـــدـــارـــ الـــعـــلـــمـــ فـــي طـــرـــابـــلســـ . وـــتـــنـــيـــزـــ مـــنـــ هـــذـــهـــ الـــمـــؤـــســـســـات الـــاـــزـــهـــرـــ الـــذـــي بـــدـــأـــ جـــامـــعـــاً ســـنـــة ٣٦١ لـــهـــجـــرـــة وـــأـــخـــذـــ يـــنـــشـــرـــ الـــمـــذـــهـــبـــ الشـــيـــعـــيـــ فـــي الـــقـــرـــنـــين الـــرـــابـــعـــ وـــالـــخـــامـــســـ لـــهـــجـــرـــة حـــتـــىـــ مـــنـــتـــصـــفـــ الســـادـــســـ ، ثـــمـــ تـــطـــوـــرـــ ســـرـــيـــعاً مـــنـــذـــ بـــدـــءـــ تـــأـــســـيـــســـهـــ إـــلـــى مـــدـــرـــســـة اـــســـلـــامـــيـــة كـــبـــرـــيـــ وـــمـــا زـــالـــ كـــذـــلـــكـــ حـــتـــىـــ الـــآنـــ .

كـــذـــلـــكـــ كـــانـــتـــ كـــلـــ مـــنـــ هـــذـــهـــ الـــمـــدـــارـــســـ الـــتـــيـــ تـــطـــوـــرـــتـــ إـــلـــى مـــدـــارـــســـ فـــقـــيـــةـــ بـــالـــأـــكـــثـــرـــ وـــالـــأـــرـــبـــطـــةـــ وـــالـــزـــوـــاـــيـــاـــ وـــالـــبـــيـــارـــســـنـــاتـــ الخـــ .. جـــزـــءـــاً مـــنـــ التنـــظـــيـــمـــاتـــ الـــعـــامـــةـــ فـــيـــ الـــعـــهـــدـــ الـــنـــورـــيـــ وـــالـــأـــيـــوـــيـــ فـــالـــعـــهـــدـــ الـــمـــلـــوـــكـــيـــ بـــلـــ وـــالـــعـــثـــانـــيـــ حـــتـــىـــ قـــبـــلـــ تـــنـــظـــيـــمـــاتـــ خـــطـــ شـــرـــيفـــ كـــلـــخـــانـــهـــ ســـنـــة ١٨٣٩ـــ . وـــكـــانـــ نـــظـــامـــ التـــقـــاعـــدـــ لـــلـــعـــلـــمـــيـــنـــ مـــعـــمـــولاـــ بـــهـــ فـــيـــ الـــعـــهـــدـــ الـــعـــثـــانـــيـــ مـــنـــذـــ الـــقـــرـــنـــ الثـــامـــنـــ الـــهـــجـــرـــيـــ حـــتـــىـــ الـــقـــرـــونـــ الـــمـــتـــأـــخـــرـــةـــ ، وـــكـــانـــ الدـــوـــلـــةـــ تـــنـــفـــقـــ عـــلـــ الـــمـــدـــارـــســـ الـــعـــامـــةـــ وـــالـــرـــبـــطـــ وـــدـــوـــرـــ الـــعـــلـــمـــ بـــنـــفـــســـهـــاـــ مـــنـــ رـــســـوـــمـــ تـــجـــبـــيـــهـــاـــ مـــاـــنـــ .

الجوالي كما جاء في كتاب الشقائق النعمانية ، فليرجع اليه من اراد التوسيع في دراسة نظام التعليم العثماني قبل الاصلاحات ، ففيه مورد لا ينضب عن المعاهد العلمية العثمانية . وكانت لغة التدريس فيها العربية والتركية والفارسية . كما يمكن الرجوع للمجيبي والمرادي لدراسة المؤسسات في سوريا في القرنين الحادى عشر والثانى عشر للهجرة .

خامساً - وكان لهذا النظام التعليمي غايات واهداف . اما الغاية الاولى فهي فهم كتاب الله وحديث الرسول والعمل بما جاء فيها ، فكان من الطبيعي ان يدور التعليم حول الكتاب وقراءاته وتجويده وتفسيره ونسخه . ونشأت حول ذلك علوم اللغة فالفقه والتوحيد والاصول بل والفلسفة والرياضيات ، وما الى ذلك من العلوم النقلية والعقلية .

وقد شرح لنا كل ذلك شرحاً مفصلاً ابن خلدون في مقدمته الفريدة في باب التعليم ، كما وصف لنا العلوم العربية القلقشندي في صبح الاعشى ، وكلامها من المتأخرین من رجال القرن التاسع المجري ، فليرجع اليها من اراد مزيداً من تفهم مدى العلوم العربية وانساعها واصول التعليم وادابه وما يتعلق بهذه الصناعة . ونظرة واحدة الى فهرست ابن النديم او الى كشف الظنون لاحاجي خليلة الذي طبع طبعة فاخرة في الاستاذة تربينا العجب العجاب .

سادساً - لما كان العلم قد بني على الاصول الدينية فقد اصبح مقدساً ، بل فرضاً واقتباسه واجباً وخدمة شرفاً . (انا يخشى الله من عباده العلماء) فالكتاب يمحض علی العلم والرسول

يدعو اليه الصحابة يبشارون به ويتطوعون لنشره احتساباً لوجه الله لا اكتساباً، وقد اضحي هذا تقليداً عربياً اسلامياً يتبعه، وصار رجال العلم (على اطلاقهم) يحافظون بهالة من الاحترام بل والتقدیس حتى يومنا هذا. وكلما كانت علم العالم عویضاً واطلاعاً ولسمعاً وذاكرته قوية وحفظه غزيرآ ازداد احترام الناس له والعمل بارادته. وقد نشأت عن ذلك الرحلة في طلب العلم، وهي خاصة يتميزها كل باحث متبع لتاريخ سير التعليم عند العرب. فكان المتفقهون يرحلون من هضبة ایران الى وادي النيل او بالعكس ليهلاوا العلم على يدي عالم كبير او محدث شهير.

وقد كان منشأ نشر هذا العلم الحلقات في المساجد، ثم انتقل الى مؤسسات عامة فتحت ابوابها للعموم او اشترط الواقفون شروطاً خاصة لها، كحصر دروسها بفقه خاص، او بذهب خاص، او منع دخول النساء والاطفال اليها. وقد خدمت هذه المؤسسات غايتها بالنسبة الى زمانها ومطالب عصرها آنذاك.

سابعاً : وتطورت هذه المعاهد مع تطور العصر اذ لما احتك العرب بالاغريق والفرس والسريان في العصر الاموي وابان العصر العباسي صار من الضروري ان تترجم كتب الاغريق والفرس والسريان، فنشأت بيوت الحكمة العباسية. وكان من الضروري ان تنشر الدعوة الفاطمية توطيدها لدعائم الدولة الفتية وجرياً وراء نشر العلم فكانت دور العلم الفاطمية . ثم رأت الدولة العباسية ان تقاوم منافستها الدولة الفاطمية ، فكان من الضروري نشر الفقه الشافعي والماليكي ومحاربة الدعوة للتشييع ، وذلك عن طريق فتح

المدارس الفقهية فكانت المدرسة النظامية في بغداد . ورأى نور الدين ومن بعده صلاح الدين من الواجب ان ينشر الفقه الشافعي فأسسوا النورية بدمشق ، فالمدرسة الصلاحية في القدس ، وكان كلها شديدة التعصب لشافعيته .

وكان من المستلزمات الحربية ان تحافظ الدولة على التغور الواقع على حدود الدولة فكانت الاربطة التي استغلت لغابات حربية ، ثم ما لبثت ان تطورت فاصبحت دوراً للصوفية ، ونشأت الزوايا ثم انتقلت من بيوت صوفية علمية الى مؤسسات اجتماعية للترفية ، وخصوصاً في اثناء الحروب الصليبية بين القرنين السادس والثامن للهجرة ، فكانت الخانقاهات التي اخذت توسيع الجنود وترفه عنهم وتسد مطالبهم الجسدية والروحية . واستدعت الحروب الصليبية تأسيس البيمارستانات لمداواة الجرحى وتضميد جراحهم ، فكانت هذه المؤسسات تتماشي مع المدارس الفقهية والاربطة والخانقاهات وذلك بشكل نظامي مستمر في العهد النوري فالصلاحي فالمملوكي التركي فالشركسي ، واستمر الامر على هذا الحال حتى جاء العصر العثماني ، فضعف المدارس في البلاد العربية وتطورت الزوايا والربط الى تكالباً وانحلت هذه في آخر الامر الى دور اطعام للفقراء او مطابخ عامة للكساي ، والمرتفقة ولابناء السبيل .

ناماً - على ان جميع هذه المؤسسات العلمية والعلمية الاجتماعية التي خدمت غاليتها بالنسبة الى عصرها اخذت تنحدل رويداً رويداً في ادارتها وعماراتها ومناهجها بل واهدافها . وفاقت عليها في المشرق في البلاد العربية الموجة المغولية التي اكتسحت العراق والشام في

القرن السابع للهجرة كما قضى عليها توالي الحروب وضعف الحكم والاهمال والطمع .

وضعفت ماليتها واستولى عليها المستبدون ، وضاقت مناهجها ولم يعد الطالب والاستاذ يستعملان عقلهما ، فصارت الفلسفة محمرة ، وانتصر الفقه انتصاراً تاماً وخصوصاً بعد عصر المأمون ، واخذ الروتين الديني يطغى على التفكير الحر ، ولم تعد امهات الكتب تدرس بل صارت تدرس الملاحم وملخصات الملاحم وشرح ملخص الملاحم ، تدريساً ببعائياً عن ظهر قلب واصبح العلم حفظاً ، وصار يقال حفظ فلان الكتاب الفلاوي والفلاني وكان فلان يحفظ وفر بغير ، كأن العلم هو مجرد حفظ ليس الا . وقد استمر هذا التقليد مع الاسف طيلة القرون المتأخرة ، حاشا ظمور بعض المفكرين المبتكرین هنا وهناك . على ان الاتجاه كان في الاجمال نحو تقوية الذاكرة والحفظ ، فاغوّصهم عاماً اكثراً حفظاً ، حتى اذا ما جاء العصر العثماني وفتح العثمانيون البلاد العربية في القرن العاشر الهجري كانت هذه المؤسسة قد ضعفت او تلاشت وانتقل مركز النقل الى الاناضول والروملي ، حاشا الازهر الذي ظل قائماً في المشرق اذ لم تتناوله الحروب ولم تصل اليه يد هولاكو الائمة . وكان في الامكان اعادة هذه المؤسسات التي ترعرعت في عهد الابوبين والمالويك وتجديدها وتنشيطها ، ولكن الاتراك اهلوها في البلاد العربية خاصة ولم يعوضوا مكانها ، حتى كانت سنة ١٨٣٩ ميلادية اذ باشروا بالاصلاح ، ونظمت الدولة العثمانية على اسس حديثة ، وتأسس مجلس المعارف الاعلى في الاستانة .

ويلاحظ المتبع فيها يلاحظ تكون مجموعة من القواليد التعليمية حول هذه المؤسسات فيها يتعلق بالهدف وهو العلم من أجل العلم والمعمار وبعلاقة المدرسين بالدولة والطلاب وأصول التدريس واداب المعلم والمتعلم وكتب التدريس والتنظيم الداخلي وما الى ذلك مما يعد فتحاً في علم التعليم . وقد شرح لنا ذلك ابن خلدون وصبح الاعشى وغيرهما .

أنظمة التعليم الحالية في البدو العربية (١٨٣٩ - ١٩٥٠)

إذا استثنينا الأزهر في مصر والدروس التي تلقى في المسجد الأقصى في القدس والجامع الاموي في دمشق والجوامع الكبرى الأخرى في امهات بلدان المشرق كبغداد وحلب الخ . . . فان جميع المؤسسات التي عاش البعض منها بضعة قرون تلاشت في العهد العثماني، واستولى عليها المرتزقة من ادعية العلم، وأغدقوا الدولة المال على ادعية العلم من المدرسين على قاعدة من مات عن وظيفة فلوولده . فاصبح التدريس وسيلة للارتفاع وارضاء طبقة العلماء لاسباب سياسية، وما لبثت ان اندرت هذه المؤسسات، وما زلت ترى انقضاضها وهي كلها قائمة في القاهرة والقدس ودمشق وغزة وطرابلس وحمص وحماه وبغداد الخ . .

واقتصر العلم في اوائل هذا العهد على حفظ القرآن حفظاً ببغائيّاً وتفسيره تفسيراً شكلياً اصولياً ، ثم حفظ بعض قواعد فقهية او كتب او شروح او متون بعض المختصرات في بعض العلوم النقلية التي تمت الى الكتاب بعلاقة متينة ، ثم نسخ بعض

الكتب والتفنن في الكتابة وترتيل الكتب .
وقد حضرت بنفسي بعض الامتحانات لطبقة من ادعية العلم
من تقدموا يطلبون وظائف التدريس في اوائل سنة ١٩٢٠ ، وكانت
اللجنة مؤلفة من هيئة علمية دينية ، فكانت الاسئلة تدور حول عدد
حروف المضارعة ويجمعها قوله « انيت » ، وعدد حروف القلقة
ويجمعها قوله « قطب جد » ، وما الدليل على وجود الله ! وما
فرائض الوضوء ! وهكذا فمن اجاب على هذه الاسئلة نجح ومن
أخطأ اخفق .

كذلك الاربطة التي كان لها غaiات حربية في بادىء الامر
اصبحت هي والزوايا صوفية حربية ، ثم دينية « صوفية ، اجتماعية » ،
ثم اخذت تتلاشى في العهد العثماني وانقلب الى تكابا او استعاض
عنها بذلك فصارت محطاً للكسالي والزُّمن من المرضى توزع عليهم
الشورباء والخبز ويستنصرها المتولون على اوقفها من مدعى العلم
من ذوي النفوذ . واما اليمارستانات فقد تلاشت واهملت واصبحت
مربيطاً للخيول وصارت مرادفة « لدور المجانين » ، مع انها مجسّب
مصطلحها تعني دور المرض وكان لها فروع للنساء والرجال
والامراض المختلفة للمبرودين والمحرورين وامراض الجلد والعيون ،
كما كان لها فرع للامراض العقلية وكانت المياه تجري فيها ،
وكان عليها اطباء وقوّام من الرجال والنساء كما جاء في المقريزي
وطبقات الاطباء بل كان فيها في اكثر الاحيان فرع لتدريس الطب .
وخلاصة القول ان الملك العربي لما زال زالت اكثرا المؤسسات
العلمية التقليدية او هزّلت ، وظل الطابع التقليدي الديني واللغوي

هو الطابع المسيطر على التدريس في المساجد وما تبقى حولها من المدارس الخربة .

وقد وصل إلينا هذا التراث التعليمي وقد تراكمت عليه غباائر الماضي وعشش فيه عنكبوت الجهل والتعصب وضيق التفكير والافق ، فـ كان أقرب ميراث إلينا يؤلف نموذجاً ضيقاً محدوداً ضعيفاً في بنائه ومنهجه وكتبه وعلمه . وقد اثر هذا النموذج المشوه وما زال يؤثر تأثيراً بليراً في عقلية الجماهير . ولا بد من وقت يمر قبل أن نستطيع أن ننفصل عننا تماماً غبار هذه العصور الجامدة المتأخرة المظلمة فظهور الذهب مما علق به من التراب طيلة هذه القرون . ذلك لأن التقاليد التربوية ليس من السهل التخلص منها . فالناس شديدو الحرص على التمسك بها كحرفهم على التمسك بتقاليدهم الدينية بل أكثر .

ولما زاد ضغط الدول الأوروبية على الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر واجبرت الدولة على الاصلاح وبديهياً به منذ سنة ١٨٣٩ كانت سوريا ما تزال تحت الحكم المصري وكان قد تبقى من نظام التعليم العربي السابق :

١ - الكتاتيب وهي المدارس الابتدائية ، وكانت قد ضعفت واضمحلت واصبحت تقوم في بيئات قدرة غير صحيحة ، واحترف منه التعليم ذرو العاهات من المرتفقة كما هي الحال في بعض البلدان العربية حتى الان .

٢ - ظل الازهر يؤدي رسالته الدينية ويخدم اللغة العربية ولكن على نظام تقليدي ، ومع هذا ظل يحمل مشعلاً يشع منه

بعض النور في ذلك الظلام الدامس . ولم يتأثر بالأساليب العلمية في البحث التي كانت غزت أوروبا بعيد النهضة الصناعية فقلبت أساليب الفكر الإنساني وأصول التدريس رأساً على عقب . على أنه لابد من الإشارة هنا بانهناك محاولات جدية لتطور الأساليب في الأزهر في الأقسام الابتدائية والثانوية خاصة في الربع الثاني من هذا القرن .

٣ - وجود عدد من المدارس الدينية وبالخصوص حول المساجد ، كمسجد القدس ودمشق وحلب وبغداد وغزة وعكا وطرابلس الخ .. وبعض الحلقات في سائر المساجد ، ولكن أكثر المدرسین كانوا يتذالون أجورهم بوجوب فرمانات سلطانية دون أن يؤدوا عملا حاشا الأقل منهم . وكذلك بعض المدارس الدينية حول الأديرة والبيع والكنائس .

وفي سنة ١٨٣٩ قامت الدولة باصلاح عام شامل في التنظيمات الادارية والتعليم وانشأت مجلس المعارف في استنبول وشرع في تأسيس المدارس الرسمية في جميع أنحاء الدولة بعد ذلك .

النظام العربي التركي الافرنسي

وكان قد سبق ذلك هزات عنيفة ایقظت الامة العربية من سباتها . من ذلك حملة نابليون الفاشلة التي اثرت على مصر أكثر من اي قطر عربي ، وفشلت عسكريا عند أسوار عكا ، وذلك في ١٧٩٨ ، ولكنها تركت اثرا لا يمحى في الحياة العقلية بما جلبت الى مصر من وسائل المدنية الحديثة وعنابر الثقافة . ولا شك في أنها اثرت على الشام عامة بطريقة غير مباشرة . ثم تبع ذلك قيام محمد

عليه ولده ابو ابراهيم باشا الذي فتح سوريا وحكمها من سنة ١٨٣٠ - ١٨٤٠ واذل جبروت الدولة وهز اركانها . وهنا الخدت الدولة تفتح عيونها للإصلاح وابتداط في تحرير العناصر . ويصح ان نعتبر هذه الفترة بهذه النهضة الحديثة التي ادخلت العالم العربي والتعليم العربي في طور جديد . وليس لك الا ان تقرأ ما كتبه الاستاذ تاجر في كتابه «الكتب المترجمة في القرن التاسع عشر» لتطلع على مدى اتساع هذه النهضة من ناحية واحدة هي ترجمة الكتب الافرنجية الى العربية .

قلنا ان لائحة الاصلاح بدأت سنة ١٨٣٩ ولكنها ظلت بثابة حاولات في الدولة ، واستمرت تتارجح ، فادخل نظام الولايات العثمانية الحديث وهو نظام افرنسي خالص ، فالولاية هي ال Arrondissement والمنصورية هي Canton والمديرية هي Mairie .

واخطأت الدولة خطأين فاحشين اساسين - اولاً : لم تتبع اساليب الاصلاح الطبيعية وهي الشروع في اصلاح المؤسسات العلمية الموجودة والتدرج من ذلك الاساس في الابنية والمناهج والكتب واساليب التدريس الخ . ولم يبدئوا العمل من الكتايد وبقايا المدارس الدينية بل نحوا جانبا آخر بالمرة ، ذلك انهم اقتبسوا النظام الاداري الافرنسي الاجنبي واقتبسوا معه نظام التعليم الافرنسي بنصه وشكله في تشكيلاه وتنظيماته ، بل في جميع دقائقه وشوارده دفعه واحدة ، ولكنهم بالطبع اخطأوا التقليد في روحه وفي كفاءة معلميه وفي كتبه . ونخص بالذكر

بعض نواحيه ، من ذلك مشكلة المعلمين وخصوصا معلمي القرى والريف اذ تركوا تعليمهم الى جانب عملية بدلها من ان تتولى ذلك السلطة المركزية الفنية ، فادى ذلك الى التشویش في الادارة وظل التعليم في الريف اسما .

فكانت الجامعة في استنبول وهذه هي la Université بفروع الطب والهندسة والحقوق ، وكانت المكاتب الاعدادية ثم قلبت الى سلطانية فيها بعد وهي le Lycée وكانت المدارس الرشدية وهي Ecole Primaire Supérieure ثم المدارس الابتدائية وهي la Ecole Elementaire فكانت الاعدادية ذات السبع سنوات بعد الابتدائية في الولاية والخمس سنوات في المتصرفية ، والرشدية ذات السبع سنوات (ثلاثة رشدية واربع سنوات ابتدائية) في القائمة ، والابتدائية ذات الاربع سنوات في مراكز المديريات .

ثانياً - ان التسهيل الاسلامي التقليدي ورقة الحكم المذين تشيّبا طيلة عصور مدينة، من جهة، وضغط الدول الاجنبية، من جهة ثانية سمح للطوائف غير المسلمة ان تتكتل على اساس الملة، واجاز لهذه الملل ان تؤلف وحدات شبه مستقلة ، فكانت لها مدارسها ومؤسساتها العلمية، وانحصر عمل التعليم الرسمي العام بالاسلميين بالأكثر، رغم ان المدارس الرسمية العثمانية كانت مفتوحة الابواب للجميع . وكان لسياسة التكتل الملي هذا اثر بارز من الناحيتين الثقافية والسياسية ، فقد قسمت عناصر الدولة الى ملل ونحل شبه مستقلة لكل منها مدارسها الخاصة بها . ولم تندمج هذه العناصر في مدرسة واحدة كما كان يجب ان يكون، بل بالعكس ازداد الوعي

الطائفي ، والشعور بالطائفية ، فالف هذا على توالى العصور شعورا متبليوراً أصبح تقليداً معيناً به وما زلتـ نعاين اثره في البلاد العربية حتى اليوم . ولن يحيى هذا الشعور الملي في سائر نواحـيه إلا في وجود مدرسة وطنية واحدة يؤمـها جميع أبناء الـامة فيدرسون على مقعد واحد وتحتـرـم فيها عقائد وطقوس كل فرد ، شأن الطوائف في إنـجـلـانـدـ وـأـمـيرـكـاـ وـأـورـوبـاـ في المدارس العامة .

وكان تعـليمـ الانـاثـ هـزـيلـاـ ضـعـيفـاـ . ولا اعـرفـ انـهمـ تـكـنـواـ حتـىـ فيـ آخرـ ايـامـ حـكـمـهـمـ منـ رـفـعـ مـسـتـوىـ التـعـليمـ النـسـويـ عنـ المـرـتـبةـ الرـشـدـيـةـ اوـ ماـ يـقـرـبـ منـ ذـلـكـ ، حتـىـ فيـ مـراـكـزـ الـولـاـيـاتـ ، ماـ عـدـاـ تـأـسـيـسـ دـارـ لـمـعـلـمـاتـ فيـ بـيـرـوـتـ وـدمـشـقـ وـمـراـكـزـ الـولـاـيـاتـ وـأـخـرىـ عـالـيـةـ فيـ الـاسـتـانـةـ ، وـاـخـطـأـواـ خـطـأـ عـظـيـماـ اـذـ تـرـكـواـ اـدـارـةـ المـدارـسـ فيـ الـرـيفـ مـاعـدـاـ مـارـاـكـزـ المـديـرـيـاتـ فيـ ايـديـ جـانـ محلـيـةـ ، كـماـ ذـكـرـناـ ، تـنـصـرـفـ بـهـذـهـ المـدارـسـ وـتـعـيـنـ مـعـلـمـيـهاـ كـاتـرـيدـ ، وـهـكـذـاـ خـرـجـوـ اـعـنـ النـظـامـ الـافـرنـسيـ فيـ نـاحـيـةـ منـ اـهـمـ نـواـحـيـهـ ، بماـ اـدـىـ الىـ اـنـخـطـاطـ مـدارـسـ الـرـيفـ اـجـمـالـاـ اـذـ تـكـادـ تـقـولـ انـ المـدارـسـ الـرـيفـيـةـ كـانـتـ حتـىـ فيـ اوـاخـرـ العـهـدـ اـشـبـهـ بـكـتـاتـيـبـ مـنـهـاـ بـمـدارـسـ . وـكـانـتـ اـمـاـكـنـهـاـ غـيرـ صـحـيـةـ وـأـنـاثـهـاـ يـكـادـ يـكـونـ مـفـقـودـاـ وـمـعـلـمـيـهـاـ وـهـمـاـ مـنـ اـنـصـافـ الـمـعـلـمـيـنـ . ويـقـولـ اـبـراهـيمـ حـلـميـ اـحـدـ كـتـابـ الـاتـراكـ الـمـشـهـورـيـنـ انـ الـحـالـةـ وـانـ تـحـسـنـتـ بـعـضـ الشـيـيـعـهـ بـعـدـ الدـسـتـورـ الـعـمـانـيـ سـنـةـ ١٩٠٨ـ الاـ انـ الـاصـلـاحـاتـ كـانـتـ فيـ اـكـثـرـ الـاحـيـاـنـ حـبـراـ عـلـىـ وـرـقـ . منـ ذـلـكـ انـ وزـارـةـ الـمـعـارـفـ كـانـتـ تـعـلـنـ عـنـ عـزـمـهـاـ عـلـىـ اـفـتـاحـ مـئـاتـ الـمـدارـسـ فيـ الـولـاـيـاتـ فـكـانـ المؤـلـفـونـ يـسـرعـونـ عـلـىـ طـبـعـ آـلـافـ النـسـخـ منـ

كتبهم ثم يتصلون بالمدارس فيجدون ان القسم الاعظم منها لا وجود له، وتردهم الاجوية بان المدرسة لم تفتح لعدم وجود البناء او لانشاء لجنة المعارف او لعدم وجود الاساتذة الخ . فكانت خسائرهم في الكتب كبيرة واستيائهم شديداً .

وكان نظام التعليم اجمالاً نظاماً ضعيفاً في هيكله وتنظيمه وادارته . وكانت لغة التعليم الرسمية فيه التركية ، وكانت العربية تدرس فيه عن طريق التركية اي كلغة اجنبية . وكان اكثراً اساتذة اللغة العربية من الاتراك . وظلت هذه المدارس الرسمية جامدة لا روح فيها ركيكة في هيئة تعليمها ، وانى لها ان تختار المدارس الاجنبية التي اخذت تغزو الشرق خاصة في اواسط القرن التاسع عشر بشكل نظامي وعلى اساس تنظيم اوروبي حديث . وهكذا تألف من ذلك سلسلة من المدارس في اخناء الامبراطورية العثمانية نموذجها الاصلي في فرنسا، وقد طبعها الاتراك بطابعهم الروتيني واحتفظ بها العرب حتى اليوم ، وما زال طابع هذه المدارس ظاهراً في مدارسنا الثانوية في اكثراً البلاد العربية ما عدا مصر لأسباب لا مجال لذكرها ، وقد ادخلت عليها بعض تغييرات كان اهمها ان اصبحت العربية لغة التدريس . ولكنها ما زالت افرنسية في ارومتها، تركية في مبناتها، عربية في ظاهرها ولباسها . بل لعل بعض المدارس السلطانية العثمانية في اواخر العهد العثماني كانت تفضل بعض مدارسنا العربية الان .

نظام التعليم الاجنبي

قلنا انه مشى مع هذه المدارس التي تأسست في البلاد العربية

من ١٨٣٩ او بعيد ذلك الى ١٩١٧ سلسلة من المدارس الاجنبية من اميركية وانكلزية وروسية والمانية وافرنسية تحمل كل واحدة منها طابع بلادها ويشرف عليها مبشرون لبعضهم غایات معلومة دينية ثقافية في ظاهرها، سياسية اقتصادية في باطنها . وقد مهد هذا النظام التعليمي الاجنبي لكثير من الاوضاع التي طرأة على هذه البلاد بعد زوال الحكم التركي عنها سنة ١٩١٧؛ ولا يستطيع الم Kapoor ان ينكر من جهة أخرى فضل هذا النظام على الشرق من جهة نشر العلم ورفع المستوى الثقافي . كما مشى معها سلسلة من المدارس الطائفية التي انشأتها الملل المختلفة وبرز فيها الطابع الطائفي بروزاً ظاهراً منذ نشر لائحة اصلاح كلخانه سنة ١٨٣٩ .

وتصارع النظمان فكان من الطبيعي ان يتغلب النظام الاجنبي والملي على العثماني، رغم جميع حماولات الدولة العثمانية في اصلاح المناهج وابنية المدارس والمعلمين، وخصوصاً بعد سنة ١٩٠٨ اي بعد اعلان الدستور العثماني . على ان القاطرة البخارية كانت قد سبقت قافلة الجمال فتأخرت المدارس العثمانية عن السير في درك الحضارة، وعجزت عن صهر عناصر الدولة المختلفة ودمجها في عنصر واحد . ففشلت في ايفاء وظيفتها الاولى وانحصر عملها في اخراج بعض الموظفين ، وما زال متخرجو المدارس العثمانية حتى اليوم يلعبون دوراً رئيسياً في الشؤون العربية .

وقد نشأني من المدارس العثمانية جامعة استانبول وبعض فروعها ، وبعض المدارس الثانوية الرسمية كفلاطة سراي ، وهي نموذج قام لليس عليه الافرنسية، فلغة التعليم فيها ، الى جانب التركية ،

هي الافرنسيه وجل اسانتها افرنسيون، وكانت تعد متخرجيها للسلك القنصلي خاصه .

ومهوب بتطور النظم التعليميه واهدافه

نحن من القائلين بان نظام التعليم لايه امة يجب ان ينشأ في البلاد على جذور اهلية ، ومن ثم يتطور تطوراً تدريجياً من ذلك الاساس بعماً لمطالب العصر واهداف الامة وفلسفتها . ونحن لانعتقد بان اقتباس الانظمه التعليمية الغربيه اقتباساً ببغائيّاً دون تعديل او تبديل يأتي بالفائده المطلوبه اذ نعلم مثلاً ان Public School هي نبتة انكلزيّه لها خصائصها ، والجذازيوم هي نبتة المانيّه لها ميزاتها ، واللبسيه نبتة افرنسيّه لها فضائلها . وكما ان تفاح زيداني اذا نقل الى الساحل لم يعد تفاحاً زيدانياً ، والبرتقال اليافي اذا نقل الى تربة اخرى زالت خصائصه الاصلية هكذا الانظمه التعليمية والاجتماعية والقضائيّه .

من اجل هذا فنحن نؤمن بالتطور الطبيعي لا المصطنع في انظمه التعليم ، ونرى ان تطور النظم يجب ان يتمشى مع عقلية الامة وتفكيرها واهدافها .

اما عيوب انظمه التعليم الحالية في البلاد العربيه فتتلخص في انها انظمه مقتبسة غير طبيعية ، ولهذا فجذورها اجنبيّه وغضونها وأغارها كذلك . والتدرис فيها ميكانيكي يعتمد على ذكرة الطالب في الدرجة الاولى . والاعتماد على الحفظ هذا من ميراث عصور الانحطاط خاصه . كما ان الفرد فيها مهمّل ، فشخصية الطالب

مضغوط عليها، وهذا تألف وحدات مكبوة، وقد مثل فيها ابتكار الطالب وتفكيره الحر الطليق وخياله . والروح الرياضية الحقة معدومة فيها، فاللاعب ما زالت تلعب للغلبة وما زال الفرد فيها هو المهم، وما زال الجمهور يصفق للفرد اللاعب فيها لا للمجموع . كما ان التربية الدينية الحقة الممثلة بالمثل العليا لا وجود لها ، فالدين بمفهومه الحقيقي لا يؤثر تأثيراً فعالاً في حياة الطلاب من الناحية الأخلاقية . والتدرис الديني سطحي ، والروح الدينية التي تدعى الى مكارم الاخلاق والى إنصاف الناس والتزّه عن الصغار مفقودة ، وكتب الدين سقيمة مهملة لا تفي بالمراد. ولا تتمي هذه الانظمة الشعور الوطني اي شعور التمسك بالوطن والاستعداد للتضحية من اجله، وفقدت فيها الروح العسكرية وتدريب الشبان عليها ، وروح التعاون بين الم هيئات التعليمية والطلاب . ولا تصرّر فيها العناصر المختلفة في بوتقة واحدة بل هي مع الاسف تقوي روح الطائفية وتنميها .

اضف الى هذا جميعه ان خصصاتها المالية لا تكفي ، والقسم الاعظم من الامم جاهل ، وبذل الحكومات والافراد من اجلها قليل .

ثم هناك فقدان الكتب المدرسية وعدم صلاحيتها وجهل المؤلفين واستئثارهم لها بشكل باوز بشع .

ثم هناك نقص واضح في المعلمين المدربين علمياً وعملاً. والراغبون من الشبان والشابات للتضحية في خدمة هذه المهنة الشريفة قليلون . ثم ضعف الناحية الفنية في الاعمال اليدوية والموسيقية وغير ذلك

من الفنون لفقدان التخصص وفقدان التقليد وعدم الاهتمام بها في المنهاج .

هذا جميعه ولاسباب اخرى نرى ان يعاد النظر في انظمة التعليم في البلدان العربية من اسهامها الاولية ، بحيث تتطبق برامجها على مطالب الامة وحاجاتها واهدافها . ويقتضي هذا تحديد فلسفة التربية وتعيين المهد . وارسل هذه الاهداف تكون امة مستقلة قوية وارادتنا كاملة لان نحيها كذلك . ولا يمكن ان نحيها اذا لم نكن مستعدين للتضحية ، فلا بد من زرع هذه الروح وتنشئتها اعلاماً وعملاً ، ولا بد ان نربي الجيل على الاستعداد للتضحية في الروح والنفس والممال والجهد من اجل الوطن الذي نعيش فيه ، ومن اجل التراث الادبي الذي نفتخر ونتغنى به .

لهذا يجب احداث تغيير اساسي في اهداف التعليم واساليبه وجوه وروحه ، بحيث يصبح عملية فعالة حيوية خلافة مبنية على اسس علمية واعية . ومن اجل هذا يجب تغيير برامج التعليم من اسهامها ، وقلبها رأساً على عقب . ومن ثم تطبيقها لنصل الى تلوك الاهداف . واهم مواد المنهاج اللغة العربية ، فكتب التدريس وكتب القراءة خاصة اكثراها سخيف بملل سقيم تقليدي استثماري ، فيجب استبدالها حالاً بكتب ديناميكية من صميم الادب القومي او الادب العالمي ، ويقال مثل ذلك في كتب قواعد اللغة وآدابها . ويجب الاحتفاظ باللغة العربية لغة تعليم في جميع مراحل الدراسة من اولية الى ثانوية الى عالية ، وحدار ان تصبح اللغة الاجنبية لغة التعليم اي لغة فعالة عند الطلاب ، فان ذلك يشن

الابتكار والتفكير والخيال ، كما هي الحال عند عامة متخرجي المدارس الأجنبية .

ويشى مع هذا وجوب الاهتمام جدياً بلغة أجنبية حية اهتماماً خاصاً هي في نظرنا اللغة الانكليزية ، وذلك ربطاً لعلاقتنا بالعالم الخارجي ولأسباب تقافية . وتدرس هذه اللغة بعد أن يتقن الولد قراءة لفته وكتابتها اي بعد السنة الرابعة الدراسية للطفل .

كذلك يقتضي اعادة النظر في تدريس التاريخ العربي واعادة كتابته من جديد ليلاطم مطالبنا . فال التاريخ العربي في نظرنا كما يدرس الآن في المدارس الابتدائية والثانوية سقيم هزيل ، وهو عبارة عن مجموعة معلومات متقطعة ، متبعثرة ، مشوهة ، مغلوطة ، مضلة . ثم لا بد من الاهتمام بالعلوم الطبيعية والحياتية اهتماماً فعالاً جدياً ، وتجهيز المدارس بالمخترات والاساتذة الذين يحسنون استعمال هذه المخترات ويدربون ابناءنا على استعمالها وعلى الطرق العلمية في البحث منذ الصغر .

فتعلم العلوم الطبيعية ضعيف نظري يحشو عقل الطالب بالمعلومات ، والروح العلمية وروح البحث لا وجود لها . كذلك الاهتمام بجغرافية البلاد العربية وبطبيعتها وتكوينها ومناخها ومعادنها وكنوزها وعلاقاتها التجارية والاقتصادية اهتماماً خاصاً ، واثارة حبّة الطالب لبلادهم وربط الجغرافيا بالتاريخ في كل مناسبة واعداد الكتب والادوات اللازمة لذلك .

ويقال مثل ذلك في الاهتمام بالرياضة البدنية ، والروح الرياضية ، وتنشيط الروح العسكرية ، والتدریب العسكري الفعلى للبنين

*

والبنات في جميع المدارس الثانوية في الصنوف العلمية .
بحيث لا يجاز اي طالب او طالبة من مدرسة ثانوية او جامعة الا
وقد أمنى مدة التدريب العسكري كما هي الحال في البلدان
المجيدة .

ولابد لصلاح النظام من الاهتمام الكلي بدور المعلمات
والمعلمين ، ولا نرى فرقاً بين معلم المدينة والقرية ما عدا المعلم
الاختصاصي في مدرسة الريف او المدينة . وانا من القائلين بوجوب
وجود مدرسة معلمين واحدة ، كمدرسة الطب الواحدة ، واعارض
في تأسيس دور معلمين اولية وابتدائية لتدريب معلمين للمدارس
ال المختلفة . اما المدارس الثانوية فتستمد اسانتها من خريجي
الجامعات ومن اعضاء البعثات العلمية من ذوي العقول النيرة
والكفاءات العلمية العالية .

كذلك ادعو الى الاكتئان من تأسيس مدارس داخلية ثانوية
على غرار المدارس العامة الانكليزية تتناول الولد او البنت من سن
١٢ الى ١٨ تثقفه بلغته الوطنية في محبي جميل جذاب تحت إشراف
اساتذة متخصصين من خريجي الجامعات في جو رياضي نشيط ، وتم ب التربية
العادات المستحبة والحالات الخلقية تربية عملية كالتضحيه والاطاعة
والنظام وتحمل الغلبة والتعاون والسعى لمدف معين مشترك ، ولا
تم هذه التربية الا بامداد مدارس داخلية خاصة تدفع رسوماً
وتغطي الاذكياء وغير المقتدرین من المتفوقين من الدفع على نظام
المنح المدرسية السخية ، وفي هذه المدارس والكليات تنشأ التقاليد
القومية ويربي الشبان والشابات تربية مثلی ، كما ادعو الى عدم مجانية

التعليم العالي والى اعطاء منح سخية للمتفوقين من الطلاب الذين يصلحون للتعليم العالي.

ومع اني من القائلين بوجوب تشجيع الافراد والهيئات والجماعات على تأسيس المعاهد العلمية العامة ، الا انني اعتقد بان الدولة يجب ان تتحمل المسؤولية الاولى والعبء الكبير في نفقات نظام التعليم وان تسيطر سلطه قامة مباشرة او غير مباشرة على هذه المعاهد وتوجهها وتسيرها نحو المهد المنشود .

ومن العجب ان نرجو الخير للعرب اذا لم يضغط الرأي العام ضغطاً شديداً على الحكومات لكي تزيد المخصصات للتعليم بحيث تصل الى ٢٥ بالمئة من الميزانية فيقفى على الأمية تدریجياً والا فلا رجاء لامة ثمانون بالمئة من ابنائنا جهلة واكثر بناتها أميات . ولهذا فمن واجب الدولة ان تشجع الجهد الفردي حيثما كان ، ضمن نظام وطني واحد تكون لغة التعليم فيه اللغة الوطنية وتكون أهدافه صريحة . هذه المؤسسات من مدارس ومستشفيات ونوااد ومكتبات ودور علم هي التي تحمي لنا اللغة والتقاليد القومية والقومات الشخصية والمثل العليا وبالتالي كيان الاستقلال الذي هو أعز ما يملك .

لقد اثبتت لنا الاختبار المرير ان المدارس التي أقمناها في فلسطين على ما كان فيها من نظام وترتيب من حيث ابنيتها ومستوى معلمهها لم تستطع ان تقي بالفرض منها . ذلك ان الخصم وقد عرف ما يريد كان يحاول امتلاك القوة في درب شبابه وشاباته على القتال والصراع وروح العداء والانتقام ، فكان يهم بلغته وتاريخه وجفرا فيته

اهتمامًا عجيباً وَكُنا نهْمَ بالعلوم الادبية وندرِب شبابنا ليكونوا مهذبين مساملين ، في حين كانوا يدرِبون شبانهم وبناتهم على استعمال المتراليموز ومدفع الماون يوم كنا نعلم شبابنا استعمال مضرب النساء واحترام معتقد الغير وآرائهم . فاذا لم نعرف ما زرِد ، نُرِد ما يجب ان يكون فلن نتقدم في هذا السبيل .

في هذا الصراع المائل يجب على المسؤولين في العالم العربي ان يتساءلوا عندما يجلسون لاعادة النظر في مناهج التعليم : ما هي الغاية او المهد من التعليم لابناء العرب اليوم؟ هل هو خشبة الله؟ هل هو خلق مواطن صالح؟ هل هو السمو بالفرد الى الكمال؟ هل هو تخصيل القوت والمعاش؟ هل هو رفع مستوى المعيشة؟ هل هو تنمية موهاب الفرد؟ هل هو اعداد الفرد ليحافظ على استقلاله وكيانه؟ وكيف تمتلك القوة الجسدية والعقلية والمالية في افرادنا وجموعنا؟

وخلاصة القول انتا يجب ان تنشيء نظاماً يهدف الى المحافظة على استقلال الامة وكيانها ، فنسهل لكل فرد من افرادها مهارات كان مركزه في المدن والريف على السواء ان يدخل ضمن هذا النظام ويفيد منه بحسب موهابته وقدرته . ويقتضي هذا ان نتم بكل فرد من الافراد ذكرآ كان ام انشى ، وتنشئه ونقويه فلا ترك عقلاً لا نصلة ونذربه . وليس من المناسب ان نكتب الفردون ضغط على الشخصية الفردية وتكونهما في سبيل الحصول على الشكل الظاهري الموحد . وكل نظام تعليمي يجب ان يهدف الى اكتشاف العقول القوية في الامة ورعايتها والأخذ بيدها وتسخير السبل

لتعليمها وتنقيفها كما يكتشف المواهب الخاصة في كل فرد وينشط هذه المواهب ويرأذن بيتها إلى الكمال، ولا يكون هذا إلا إذا كان التعليم عاماً شاملـاً . وبالاجمال فإن نظام التعليم يجب أن يقوم بتهيئة البيئة المناسبة للطالب لتجدد تلك المواهب بجالاً للنمو والظهور في أكمل صورها .

ولن يكتب للعرب البقاء أعزاء أقوياء كراماً إلا إذا أعادوا النظر في مناهجهم وقلبوها ظهراً على عقب وتطوعت أقوى العناصر خدمة التعليم ومشوا في ركب الحضارة كما مشى غيرهم خطوة خطوة ودرجة درجة على ضوء الواقع الحاضر، مسترشدين بعقولهم لا بعواطفهم، مستعينين بالاساليب العلمية الحديثة الحرة، مستمددين من ماضיהם قوة وعزماً، ومن تاريخهم والتاريخ الانساني العام مثلاً علياً يশون على غرارها ويسترشدون بهديها . ومن اراد الحياة كتب لها الحياة ، ومن اراد الموت فهو اهون السهل وايسرها . ولست ارى ان العرب جادون اليوم، ولم يريدوا بعد ان يعيشوا الحراراً .

الاتجاهات الحديثة في الاسلام

للأستاذ محمد بهجة الاثري



يواجه الاسلام في هذا العصر بمجموعتين هائلتين من المشكلات العويصة المعقّدة : المشكلات القديمة التي تراكمت عليه في عصوره الطوال ، وعملت على تغيير صورته وتحويل وجهته عن مسارها العالمية الى ان تأخر أهلها وعاد هو غريباً بينهم غربته بين غيرهم ، والمشكلات الجديدة التي أحدثها له ، ولا يزال يحدثها له ، هذا السلطان السياسي للدول اوربة في دياره ومحاولاته الكثيرة المتنوعة في مكافحته لافساد يقطنه ، وعزله وإقصائه عن واقع الحياة ، خفافة سلطانه واستعلانه .

والبحث في وجهاته في هذا العصر يستلزم ، قبل تناوله ، دراسة صورتين موجزتين لهاتين المجموعتين من مشكلاته ترتيباً للنتائج على المقدمات وربطها للمسببات بالأسباب ، وبدون الاستنارة بما ينبغي ان نضمنها من حقائق لا نستطيع ان نقدر حق التقدير خطورة التطورات المختلفة التي ظهرت في وجهات الاسلام اليوم . واني لمضطر ان اعترف ، قبل الخوض في هذا الحضن المتلاطم

عبابه ، بأني قد ظلمت نفسي أبغض الظلم حين اطمأنت الى الرضا بتناول هذا المبحث انعظيم في محاضرة ، في ساعة عابرة من الزمان ، وهو يلف في حنایاه احداث لزمنة طوال حافلة من قضايا التاريخ وغرائب الأطوار والوان المنازع والغایات بما لى يسعه الاحاطة بها واستخلاص وجهاتها الا معهد منظم يتوفّر على دراستها .

ولكن نبل الغاية التي دعيت الى المشاركة فيها ، وتقدير الثقة التي اولان بها علماء الجامعات الأجلاء القائدون بتذليل شؤون هذا المؤقر الكريم ، قد رجحا عندي على هضم نفسي وايثار افحامها هذا المأزق .

وزاد في رجحانها على ذلك في ميزان التفضيل والابنار هذه الصورة الجميلة التي ارتسمت في خيالي من جمال النفوس ورجاحة العقول التي سأواجهها هنا ، ثم ما قام في نفسي بعد ذلك من الطمع في كرم شمائل السامعين وادراكهم العميق ، وما يوحيه هذا وذاك اليهم من التقدير بطبيعة البحث وزمنه وما تقتضيه ضرورة الموقف من عذر المخاضر او قبول عذرها .

ليس للإسلام مشكلات في نفسه عند من يتدرسونه ، ويتعمقون عقيدته وتشريعيه ونظامه في قرآن واصحیح الثابت من سن رسوله ، وفي ترجمتها الى اعمال وأخلاق ومتاجع عليا كما ترى في سير خلفائه وابطاله وعلمائه ومفكريه وساسته وقادته في عهوده الاولى خاصة .

وإنما مشكلاته هي من خارج نفسه في القديم وفي الحديث .

اما مشكلاته القديمة ، فقد نشأت له من سلسلة الآفات والكوارث والمحلات العنيفة التي تعرض لها في تاريخه المديد ، وكان الباءت عليها عوامل متعددة من العصبيات والاحقاد وفدت له بالمرصاد ونزلت الى ميدانه تصارعه وتغاليه ، لتقضي عليه ، او تتجدد من نشاطه السياسي ونفوذه العالمي ، وتقف بوجاته حيث تستطيع ان تقف بها من شرق الارض وغربها ، في سلسلة طويلة من الصراع بينها وبينه تركت آثاراً سيئة في حياة المسلمين العامة ادت نتائجها الخطيرة الى انتقال السلطان من ايديهم الى ايدي خصومهم وتغلب هؤلاء على اوطانهم كما هو معروف .

وفي الحق ان ما ترتب على هذا الصراع السافر من نتائج سياسية وعقلية وروحية واجتماعية ، بعد عصور طويلة من نشأة الاسلام ، ما كان ليكون بجملته وتفصيله على هذا النحو لو سلم الاسلام من الآفات التي تناولته ونفذت اليه بواسطتها الكثيرة كما تنفذ الامراض الخبيثة الى الجسم الحي لتبديه .

نفذت هذه الآفات الى الاسلام بوسائلين منفردين في الظاهر متيحا الفتن في الباطن ، وهما وسيلة السياسة ووسيلة الدين ، وطالما ظهرت الحركات السياسية متبرقة ببراقع الدين او المذهب لتخفى وجوهها ووجهتها وتنفذ الى ما تشاء من مآربها تحت ستار اسمه وانتهاى عقيدته .

وبدأت الحركات الاولى بمحاولة قلب الدولة الاسلامية ، وهي فتية غضة لم يستو بعد عودها ، ولم تنشب جذورها ، فشرعت بالائتلاف بالخلفاء الراشدين ، وظهر ذلك اول ما ظهر بالمؤامرة

اليهودية المحسوبة التي نفذها ابو لؤلؤة الفارمي فقتل عمر بن الخطاب رضوان الله عليه .

فاما اخفقت في تحقيق غايتها بهذه الوسيلة ، عمدت الى اثارة الفتن الداخلية وتنزيق الوحدة الاسلامية بانشاء الاحزاب السرية والعلنية ، والتحزب للأسر الكبيرة في الاسلام ، ونشر فكرة الحق الاهلي في الدولة ، وابطال الشورى ، فتشعب الصراع على الخلافة ، واستتبع ذلك انتقال الحكم من يد الى يد بعوامل العصبيات القبلية والمذهبية . وبذلك دخل اول الوهن على الوحدة الاسلامية ، وما زال يقوى والوحدة تتجزأ حتى افنيت المملكة الاسلامية بين ملوك الطوائف . وظهرت حركات الملاحدة والقراطمة والباطنية في احشاء البلاد وهم يعيشون في الاسلام وفي الدولة ويهزون المملكة هزاً بالغيلة والفتوك بالخلافاء والملوك والعلماء الى ان اكتسح المغول الشرقي الاسلامي .

وكان اخطر ما قامت به هذه الحركات في توجيهها الخفية ، هو العمل على تحويل توجيهات الاسلام الروحية وتشريعاته ونزعاته عن مجاريها العالمية نحو يلاؤ تنتهي به الى اضعافه واماته حيويته ليتمكن لها من احياء عصبياتها القديمة ، واعادة سلطانها الذاهب الذي تحنّ اليه ، وشفاء صدرها من الاسلام .

فعمدت - اول ما عمدت - الى الاصل الذي عليه يقوم بناء الاسلام ، وبه يتحقق وجوده ، ومنه تنفرع وجهاته في العقيدة والشريعة والدولة والحياة . وهو التوحيد الخالص . فأرادته ان يكون شركاً خالصاً من نوع شركها القديم ، ووثنية حقيقة من

جنس وثنياتها الاولى .

وتفرع من سعيها في افساد هذا الاصل الاعظم في الاسلام ، ونجاحها فيه بجاجاً كبيراً على مر الايام ، سعيها في تشويه حقائق معظم الامور التي تترتب عليه ، وتغيير صورها بتحريف وجهاتها والابتعاد بمقاصدها ونزعاتها عن مفاهيمها الحقيقة .

وكان من وسائلها الكبرى الى ذلك ، الوضع ' وتحلل التأويل لنصوص الكتاب والسنة ، وجعل ظواهر وبواطن للقرآن وأحكامه ، واضافة البدع والمحادثات الى الدين والعبادات ، وابشاع الأذهان بالخرافات والقصص والاساطير الاسرائيلية ، والترويج لضروب من الآراء الباطلة والنوازع الضارة ولا سيما نوازع التفرق التي لم يبعث الاسلام الا لاستئصال مناشتها وانقاد العالم الانساني من شرورها وآثامها بجعل الدين كله لله وحده لا شريك له في وحدانيته ، ولا ند له ولا منازع في سلطانه ، ولا سبيل لأحد من خلقه على خلقه سواه .

وما زالت تدأب في ذلك ونحوه حتى استطاعت ان تحيل الاسلام على تراخي الايام اسماءً على غير مسماه ، وحملت جماهير المسلمين على ان يألقوها رويداً رويداً صورة له يتنكر لها الاسلام الصحيح اشد التنكر ، ومفاهيم له فاسدة تخالفها ظواهر اصوله ونصوصه اشد الخالفة ، حتى عاد كثيراً ما كان معروفاً عند اوائلهم منكراً لذاته ، وكثير ما كان منكراً عند اولئك معروفاً عند هؤلاء .

ولا غرابة في ان ينتهي الامر بالاسلام الى هذه الغاية ، بعد

ان نعلم نتائج حركات هؤلاء في الداخل من جهة ، وآثار صراع الاسلام وراء حدود بلاده وفي قلبها من جهة اخرى ، في اضعاف الامة الاسلامية ، وفسوّل الآفات الاجتماعية بين المسلمين .

ومن اخطر هذه النتائج :

انتقال 'السلطان' ، بذهاب اهل الاجيال الاولى من الصراحت المنس المنشعين بروح الرسالة ومطاعها العليا ، الى ايدي الموالي والمحجنة من رواسب الامم الذين طوأهم الاسلام في عباده ، وانتحلوه انتحلاً ظاهرياً ، وبقيت تتعتمل في صدورهم الاحنة عليه وبالبغضاء له .

ومنها : فشوّ الجهل واللامية والاستعجمان .

ومنها : انتهاء ازمه التوجيه الروحي والفكري ، تحت تأثير هذين العاملين ، الى المتصوفة واشباء الفقهاء . وقد نشأ هؤلاء في ظلال هذا الفساد ، وورثوا تلك الصورة المشوهة للإسلام كما صاغها اعداؤه ، ولم يكن لهم من الذكاء وحرية الرأي وسعة العلم ما يعينهم على التحقيق والتمييز ، فاقتتنعوا بصدق الصورة التي نقلت لهم عن الاسلام ، وألفوها منذ نعومة اظفارهم وشبوا عليها وشابوا ، وزادوها فساداً بجمودهم وفساد تخيلاتهم وابتعادهم عن مصادر الاسلام الاولى ورجوعهم في كسب معارفهم الدينية الى كتبٍ من كتب ذلك الرعيل ، وهي كتب مذهبية بحنة اهلها التعصب الخالص ، فلم تكن في الدين بذات روح ، ولا في الدنيا بذات طموح ، وشغل الناس بالجدل المذهبي ومقالات اهل النحل والملال ، ومذاهب الروح وفلسفة الاشراق ، ومسائل الانحاد والحلول

ووحدة الوجود ، فمحجوب ذلك عنهم ولم ينفعهم في دنياهم شيئاً . وأثرت الطرق الصوفية في الأفكار تأثيراً سلباً ، وكانت من هذه الطرق ما يصطنع نظام الدرجات المتصاعدة في المذاهب السرية ، ومنها ما يصطنع الدعوة إلى الزهد والانقطاع إلى الله ، ويرغب المجاهير في الفقر والمسكنة ، ويستكثر بمعونة الطبقات الحاكمة من الرّبُط والتكمّل والزوايا ، فيقصدها المتباطلون من كل صوب ليسقطوا على الفتنات من صدقات الحاكمين والاغنياء ، ثم ليجذروا بالدعاء لهم أن يطيل أمـارـهـم باسطـالـارـضـ ورافعـالـسـماءـ .

وقد كان سلطان طوائف المتصوفين ، في العهود الأخيرة خاصة ، أقوى سلطان على عقول المجاهير ، وكان مسلكهم الوضيع يجري على هوى الطبقات الحاكمة في حجب الابصار عن ترفهم وباطلهم وتغافلهم ، فوطد للمظالم واللاستبداد ، ووقف في وجه الاصلاح والمصلحين ، كما حل طاقة الامة ، وقد بقواها عن السعي ، وعقولها عن الابتكار ، وثراها عن الاستئثار . ولسنا نود ان نتحدث عن آثارها في تشويه الاخلاق، وافساد المعاملات، وترويج الدين ، واحالة العبادة والتقوى فيه إلى رفض ومكانة وتصفية ورياء ومظاهر مزورة ، خشية ان لانتهي منها ونحن نريد الاقضاب .

وبهذا الذي ذكرنا وغيره مما لم نذكر ، بلغ المسلون غاية التأخر في الدين والدنيا ، وعرضوا أنفسهم للعقوبة التي يكتبها الله على المنحرفين عن هدايته ، اذ انقطع سندهم بالروح الواعي

الذى كان يشير اسلافهم الى العظام ، كا انقطع سندهم بالعلوم العملية التي تسخر للأمة قوى الطبيعة ، وتسخرها لصالحتها وبقاءها وخلودها ، فكان انقطاع سندهم بهذين الامرين وانصرافهم الى ما وصفناه من الشؤون مدعاة ضعفهم المعنوي والمادى ، وكان ضعفهم المعنوي والمادى علة سقوطهم .

على أننا ، وقد انتهينا في رسم هذه الصورة للحياة الاسلامية المتأخرة الى هذه الغاية ، نرى من الحق علينا ، بل من مستلزمات بحثنا في وجهات الاسلام الحديثة ، أن نكشف عن حقيقةتين تأريختيتين لا خفاء بها على من يتقضّون التاريخ وينقضّون احداهن ، نعتقد انها أمسكتنا العالم الاسلامي أن ينهار ، والاسلام ان يزول ، من آية صدمة من الصدمات التي فرعته . فان لم يكن من الانتفاضات الداخلية ومجاذدها ، وهي من اعظم ما مُني به نظام من أنظمة العالم من اعدائه وجehله أهلها معًا ، فمن غارة المغول التي أبادت الحرف والنسل واحرقـت اليابس والاخضر ، وان لم يكن لا من هذه ولا من تلك فـمن الغارات الصليبية التي انشالت بها جيوش أوربة كلها بقـضـتها وقـضـيـضاـها عليه موجـةـ في إثر موجـةـ مـدةـ قـرنـينـ كـاملـينـ . وـانـ لمـ يكنـ لاـ منـ تـيـنكـ ولاـ منـ هـذـهـ فـمـنـ الكـارـثـةـ الاـوـرـوبـيـةـ الـعـظـمـىـ التـيـ بدـأـتـ طـلـائـهاـ قـبـلـ قـرنـينـ إـلـىـ انـ أـطـبـقـتـ عـلـيـهـ فـيـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـ الـاـوـلـىـ وـماـ زـالـتـ بـسـكـةـ بـخـتـاقـهـ .

وهاتان الحقيقةتان انا ترجمان - في واقع الامر - الى بقاء القرآن نفسه بنجوة من كل هذه التيارات سليمانًا لم يمسه سوء ،

وعمله في نفوس المسلمين بما تثيره تلاوته من شعور سليم يحملهم
وتصحّح المواقف التي كانت تدفعهم اليهـــ الدسائس والحرّكات
المدامة دفعاً، على اختلاف حظوظهم من تلاوته وفهمهم لما يتلّون.
ونحرص على ذكرهما لما يترتب عليهما من اثر في تبيان وجهات
الاسلام الحديثة والاسلوب الذي تسير عليهـــ.

اما الحقيقة الاولى فتتجلى في المظهر العقلي العام للمجتمع
الاسلامي في تلك العصور على ما اصابه من فساد ، وقد كان دوام
هذا المظهر سليماً الى حد ما امتداداً لوراثة التوجيه القرآني
لمجتمع الاول وللسامحة التي اتصف بها الاسلام واثرت اثراً
في نفسية المسلمين وعقلائهم ، فكانت فيهم غريزة أو كالغريزة
الوراثة اذا تعمّدها التوجيه الفاسد بوقتاته كان فيها القدرة على
الاعتصام باصالة طبيعتهاـــ.

ولعل وجہ هذا المظہر یبدو واضحـــاً بالمقابلة بينه وبين المظہر
العقلي العام لاوربة في عهد الریننسانس ، عهد الانبعاث والطیاة ،
فقد تبیح لنا هذه المقابلة أن نعد ما بلغه المجتمع الاسلامي من
الجمود العقلي في أشد عصور تأخره طوراً من اطوار الاصلاح الذي
بدأته اوربة يومئذـــ . فلم یشهد هذا المجتمع ما شهده اوربة
من تحریر العقل وسلل الفكر وجذب الروح ، وقسوة الضمير في
مصادر الحريات والضراوة في ابادة الكتب ومحاربة العلم والعلماء ،
وانزال اقسى العقوبات واقتاصها بالملفکرین من اجل افکار تبدو
لنا عادیة كانوا یعلنونها في سبیل الاصلاح والتجدد . ويذكر
التاریخ ان عدد الذين عوقبوا على آرائهم في اوربة بلغ ثلث مئة

الف ، أحرق منهم اثنان وثلاثون الفاً أحياء ، كان منهم العالم الطبيعي برونو Bruno و قد نُقمت منه آراء أشدّها قوله بتعدد العالم فحكم عليه بالقتل وأحرق ميتاً . و عوقب العالم الطبيعي الشهير غاليليو بالقتل لأنّه اعتقاد بدوران الأرض حول الشمس ، وُحبس دي رومنس في روما حتى مات ثم حُكمت جثته و كتبه فحكم عليها بالحرق وأُلقيت في النار لأنّه قال ان قوس قزح ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده اذا اراد ، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء . وأصحاب جيوفت في جنيف ، وفayıتى في تولوز ما أصاب هؤلاء وحرقا شيئاً على النار لاراء لا تستوجب حتى التعذير ، ان لم نقل تستوجب الاحترام والتقدير .

ولا جدال في أن تاريخ الاسلام لم يعرف هذه الاخطاء الشنيع حرية الفكر والعلم الذي عرفته أوربة . والاحوال النادرة التي عوقب فيها رجال على آرائهم تعد شاذة جداً في المجتمع الاسلامي ، وكانت الى ذلك تتبلس بها بواطن سياسية خطيرة تعتمد قلب الدولة والقضاء عليها كالذي كان من قتل الحسين بن منصور الحلاج ، وهو رجل بجوسى الأصل من اهل بيضاء فارس ، استغل بالخارج والجبل ، وادعى العلم بالاسرار ، ثم تناهى الى ادعاء النبوة ثم الربوبية ، واستغوى غلامان قصر المقدار العباسى لينفذ بهم الى تحقيق غايته ، فادى ذلك الى قتله . وذكر إمام الحرمين في كتابه « الشامل » انه كان بين الحلاج وبين الجنابي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة ، وان ذلك

هو السبب الحقيقي في قتل الحلاج . وهذا ، كما يرى ، باب آخر يتعلق بمحاجة الامن وحفظ النظام وسلامة الدولة ، وهو غير ما نحن فيه .

ونكتفي بهذه الامثلة البسيطة من ذلك ، ونخسها كافية في الموازنة الفاصلة لاظهار صورة تأخر المسلمين العقلي على حقيقتها حين نضعها الى جانب هذه الصورة من تأخر الاوربيين على سبيل القياس والتلميذ بما يجاري الواقع ولا يجانف مذاهب الصدق .

وأما الحقيقة الأخرى ، فهي اتصال تاريخ الاصلاح والتتجديد في الاسلام ، في مختلف عصوره . فمن ملوك من طراز الفاتحين الاوائل في دينهم ونقواهم وفي سيرتهم وأخلاقهم ، يظرون في الفترات ، ويسعون في اعادة شباب الاسلام وإقامة حکومة اسلامية على منهج الخلافة الراسدة .. الى علماء مصلحين رافعين لمشاعل التجديد ، نأذرين على البدع والحداثات التي غيرت وجه الاسلام ووجهته ، ينعون على المسلمين انحرافهم عن سنن القرآن ، ويدعوونهم الى الرجوع الى الاسلام الصحيح في صورته الحقيقة قبل ان تهدو عليه الشعوبية وسلامة اليهود وأضرابهم بالافساد والتشويه . وبذلك كانت مشاعل الاصلاح في المجتمع الاسلامي متسللة يتقى بعضها من بعض . وكانت اصواتها تختلف سطوعاً وخفوتاً على قدر طاقة مشعليها ، ومرجعها جميعاً فيأخذ أقباسها الى أصل الدين ، وهو القرآن وكونه حياً محفوظاً من التحريف والتبدل ، عالياً منارة ، متألقاً أشنته . وما زال الكتاب والسنة الصحيحة يبعثان في نفوس الاذكياء المثقفين الثورة على الوثنية والبدع

والمحذات ، والثورة على ترف المترفين واستبداد الملوك ، والثورة على الجمود والتقليد وبجانفة الفطرة وسنن الطبيعة التي لا تبدل حلائقها كما سرى أمثلته في التجديد الحديث .

ولقد كان لاستمرار هاتين الحقيقتين في العالم الاسلامي أعظم الأثر في بقائه متاسكاً وفي حفظ الاسلام من الزوال .

تلك هي الصورة المصغرة للعالم الاسلامي حين استيقظ الغرب وطفق يبحث عن مجالات غنية ليبسط عليها سلطانه ونفوذه ، وينزدی حضارته المادية بمعاذنا وخمامتها وبترولها ، ويفتح فيها لاقتصادياته وتجاراته أسوافاً تستهلk منتجاته وتنمي ثروته .

*

اما مشكلات الاسلام الحديثة ، فهي ناشئة من الاحتلال الاوربي ، وهي تكمن وراء طبيعة الاحتلال ووسائله في قتيل اقدامه في دياره ، ومنها تنطلق أسبابها وبراعتها ، ثم تأخذ صبغاتها المختلفة ، وتتكاثر وتتعقد لتستحيل الى امراض متوطنة تنهي المجتمع وتحل طاقته وتبطل مقاومته .

وقد دهم الغرب بلاد الاسلام ، وحمل معه اليها مظاهر حضارته ومذاهبه في الدين والاجتاع ومنازعه في السياسة والاقتصاد ، وأذواقه في الفنون والآداب ونوازع الحياة ، فأخذ الناس من كل ذلك بمحظوظ مختلف باختلاف حظوظهم من الاتصال بها او القرب منها والبعد عنها ، ففتن بها أناس يسرفون في حسن الظن والتقليد ، وعدّوها خيراً كلها فاندفعوا يقتبسون من ظواهرها ما يستطيعون اقتباصه ، ومن منازعها ما يسهل اخذه ، لا يعودونه او قلما يعودونه

إلى ما وراء ذلك من استبطان الدخائل وتعمق الأصول والغايات. وانكرها أناس فازوروا عنها ، وعدّوها شرّاً كلها فلم يأخذوا منها شيئاً ، وحاربوا منازعها لأنهم يزدرونها ويقتلونها مقتاً ظاهراً. ووقف آخرون موقفاً وسطاً ، لا يندفعون مع أولئك في التقليد، ولا يشارعون هؤلاء على الأزورار ، وإنما يلاحظون الظواهر ويتعمقون البواطن ويصدون الوجهات والغايات ، ثم يعرضون ذلك كله على العقل والمثل القومية والدينية فيأخذون منه أشياء ويرفضون أشياء ، ثم يلأفون بين ما يأخذون وبين مزاج الفكر الإسلامي وأصوله ، ويضفون عليه من ذلك روحًا جديداً يجعله ملكاً خالصاً للحياة الإسلامية . وبهذا زاد هؤلاء في ثروة الفكر من ناحية ، وأضعفوا من تقليد الفريق الأول كما خففوا من حدة الفريق الآخر من ناحية ثانية ، بل صنعوا أكبر من ذلك فأبطلوا مع الأيام كثيراً أو قليلاً من آثار نوازع الاحتلال في استخدام وسائله المادية والمعنوية في تغلب هذه الحضارة ومرافقها على الحضارة العربية الإسلامية لاستعلاء بها على الإسلام وحضارته . ولكن الاحتلال لا يقف ولا يكفي عن المضي في سبيله إلى غايته ، والحضارة عنده ليست غير وسيلة من وسائل تثبيت اقدامه في الديار المحتلة إلى آخر الزمان !

وقد كان هدفه - ولا يزال - إذابة شخصية المحتلين في هذه الحضارة ، وتغيير ما بأنفسهم من روح الاعتزاز بعقيدتهم أو التعلق بتاريخهم أو الأكباد حضارتهم تغييراً يسلّمهم إلى الخضوع لرادته والاستسلام لسلطانه ، والفناء في مذاهبه فهو يعلم من سلطان

كل اولئك على نفوسهم الشيء الكثير ، ويعلم انه لن يستطيع ان يؤدي عمله ، وينتهي الى غايته ، وينجح بخاحاً تماماً الا اذا مهد له السبيل بتوجيهات خاصة ومتنازع جديدة تقطع صلة المسلمين بدينهم وتضعف نوازعهم الى الاستقلال عنه والتمرد عليه .

فسعى الى ذلك – اول مَا سعى – بالتبشير ، وكان يظنه سلحاً نافذاً ، فلم يشعر له اية ثرة ايجابية ، وذهب مسامعيه في نشره ادراج الرياح ، ووجد ان المسلمين غير محتجين الى من يهدّهم الى عيسى عليه السلام ، فهم يؤمنون بعيسى ومریم وبجميع التعاليم المعقولة في المسيحية ، ويرثونه وأمه من كل شيء كاپيرنه المسيحيون .

وحينئذ فكر في نشر التعطيل بين المسلمين ليكون الوسيلة الى قطع صلتهم بالاسلام ، فاسس لذلك مدارس خاصة كالمدرسة العظمى التي اسست في الهند لنشر تعاليمه وبيث مبادئها في نفوس النشاء المسلم . فضل كثيرون منهم ، واشربوا روح الاخاء في قلوبهم ، ولا سيما اولاد الامراء الذين كان معظم طلاب تلك المدرسة منهم ، وهال ذلك السيد جمال الدين الافغاني فألف رسالته المشهورة في الرد على الدهريين ، وانتشرت الرسالة في طول البلاد وعرضها فاخرج كثير من امرائها اولادهم من تلك المدرسة ، ورجع آخرون عما كان خامر نفوسهم من التعطيل والاخاء .

وعمل السيد الافغاني مقصد الحتلين من ذلك بافهم رأوه أقرب وسيلة للوصول الى اغراضهم ، وتأييد سلطانهم في الهند ، وقال : « انهم وجدوا ان الديانة الاسلامية تطلب من اتباعها ان يكونوا

اصحاب الشوكة والسلطان في اوطانهم ، ولاحظوا ان ذلك هو طبيعة الاسلام التي لا يمكن انسلاخه عنها ، ولا انتزاعها من فطرة ابنائه ، ففكروا في امر يضعف اثر هذه العقيدة في نفوسهم ، فرأوا ان اقرب وسيلة الى نيل مرادهم هو نشر التعطيل بين المسلمين . ويشير مستر «جب» الى شبكة المدارس الاجنبية التي انتشرت ، من منتصف القرن التاسع عشر ، في معظم البلاد الاسلامية ، وتولت الدول الاوروبية تأسيسها فيها ؛ والى اثرها في صياغة اخلاق التلاميذ وتكوين ذوقهم وإعدادهم للتأثير بالمؤثرات الاوروبية ، فيقول في بعض كلامه :

« في اثناء الجزء الاخير من القرن التاسع عشر ، نفذت هذه الخطة الى ابعد من ذلك بامانة التعليم العلماني تحت الاشراف الانجليزي في مصر والهند . ولعل هناك نصيباً من الحق في التهمة التي ترمي بها هذه المدارس الاجنبية من انها مفسدة لقومية التلاميذ ، وان كنا لا نستطيع القول بان التطورات السياسية التي اعقبت ذلك في البلاد الاسلامية ايدت هذه التهمة . ولكن الذي فعلته بلاريب انها ربت في التلاميذ خروجاً على الانظمة الاجتماعية وعلى السياسة الى حد ما في اوطانهم الاصلية . وبإضعافها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الاسلامية القديمة على التلاميذ ، ادخلت في بناء المجتمع الاسلامي أداة هادمة ، وقطعت بعض الاواصر التي كانت تحفظ قاسكه » . وفي هذه الاشارات الموجزة الى نتائج وجة الاحتلال وأثر مساعيه في تغيير العقائد والانظمة الاجتماعية تظهر الاصول التي تنشأ منها كليات مشكلات الاسلام في هذا العصر ، وتنجو هي

وجزئياتها الكثيرة في النواحي النظرية والعملية نحو نقض صرح الثقافة الاسلامية التالد من أسماه وتحطيمه تحطيمًا شاملًا.

ومن أجل هذا نشأ الاستشراف في بلاد الغرب ، واخذ جماعة من الغربيين في كل دولة ذات مطامع استعمارية يعكفون على لغات الشرق وتاريخه ودينه دراسة وتأليفاً ونشرأ ، وتلك هي الغاية التي يعملون لها ، وينشرون من أجلها المشكلات بوجه الاسلام.

فهاتان هما الصورتان الموجزان ، لم يبلغ منها كل ما نريد ، ولكنها على كل حال تلقيان شيئاً من الضوء على الوجهات الحديثة للإسلام في هذا العصر .

وبنبدأ بالموضوع نفسه ، فنقول :

لما باغتت اوربة العالم الاسلامي ، وبدأت تعزوه من يمينه وشماله ، وتتغلغل جيوشاً في قلبه ، منذ القرن الثامن عشر - كان على الاسلام ان يلمّ شعثه ، ويحارب في ميدانين ، في الميدان الداخلي للتحرر من اغلال العصور الوسطى ، وفي الميدان الخارجي لردة عادية المعذدين الغزا .

فصاحت الاقدار في وقت متقارب جداً وجهته الى ذلك في مظيرين هما الاسلام كله ، ولا يكون الاسلام اسلاماً الا بهما مجتمعين ، مظير مادي حربي ، ومظير ديني روحي .

اما المظير المادي الحربي فقد كشفت عنه الامبراطورية العثمانية والدولة العلوية بصر ، حين سعى بعض الخلفاء العثمانيين وسامة الترك الى اقتباس وسائل القوة والتنظيم الحربي والاداري

من المظاهر المدنية الحبـة او ربة ، وسـى اليـه كذلك محمد عـليـ فيـ مصر من النـاحـة الـحـربـية الـاـقـتصـادـيـة الـعـلـمـيـة الـعـمـرـانـيـة عـلـىـ حـظـوظـ مـخـتـلـفةـ منـ التـوـفـيقـ . وـقـدـ اـرـادـواـ جـمـيعـاـ بـعـدـ اـنـ لـمـ سـواـ تـفـوقـ الـغـرـبـ بـوـسـائـلـ الـحـدـيـثـةـ اـنـ يـتـهـيـأـواـ لـلـدـفـاعـ عـنـ الـوـطـنـ الـاسـلـامـيـ بـمـثـلـ الـوـسـائـلـ الـتـيـ يـصـطـنـعـهاـ . وـلـكـنـ هـذـهـ الـبـقـظـةـ جـاءـتـ ، لـسـوـهـ الـحـظـ ، مـتـأـخـرـةـ جـداـ ، اـذـ كـانـ اوـرـبـةـ قـدـ اـسـتـكـملـتـ وـسـائـلـ نـهـضـتـهاـ خـلـالـ سـتـةـ قـرـونـ مـتـقـدـمـةـ تـوـفـرـتـ فـيـهاـ عـلـىـ الـاصـلاحـ وـالـتـجـدـيدـ وـالـاـنـبـاعـ ، وـاـخـذـتـ تـعـدـوـ الـغـايـتـاـ عـدـوـاـ بـلـ تـطـيـرـ الـيـهاـ طـيـرـاـ وـتـمـخـضـ صـنـاعـاتـهاـ الـحـرـبـيـةـ كـلـ يـوـمـ عـنـ سـلاـحـ جـدـيدـ تـبـادـيـءـ بـهـ اـعـدـاءـهاـ قـبـلـ اـنـ يـتـمـكـنـواـ مـنـ الـاستـعـدـادـ لـلـقـائـهاـ .

ولـيـسـ المـهمـ فـيـ بـحـثـنـاـ اـنـ نـشـيرـ الـىـ غـنـاءـ ذـلـكـ اوـ عـدـمـ غـنـاءـهـ بـوـمـئـذـ ، وـاـنـ المـهمـ مـاـ نـشـيرـ الـىـ مـدـلـالـتـهـ الـعـمـلـيـةـ عـلـىـ وـجـهـ الـاسـلامـ وـمـرـونـتـهـ وـوـفـائـهـ بـحـاجـاتـ كـلـ عـصـرـ .

فـاـنـ اـسـرـاعـ هـاتـيـنـ الدـوـلـتـيـنـ الـىـ اـدـخـالـ وـسـائـلـ الـغـرـبـ ، بـلـ قـبـولـ التـنـظـيمـ الـاـورـبـيـ فـيـ الـادـارـةـ وـالـعـمـرـانـ وـالـفـنـ ، هـوـ مـظـهـرـ وـرـاضـحـ لـهـذـهـ الـوـجـهـ فـيـهـ وـالـقـابـلـيـةـ لـدـيـهـ . وـهـيـ وـاـنـ تـكـنـ مـنـ الـبـدـيـهـيـاتـ ، الاـ انـ الجـمـودـ الـذـيـ مـنـيـ بـهـ بـعـضـ الـمـسـلـمـينـ وـالـعـصـيـيـةـ الـتـيـ اـبـتـلـيـ بـهـاـ غـيـرـهـ فـرـمـواـ الـاسـلـامـ بـالـعـقـمـ وـالـجـمـودـ وـالـعـدـاءـ لـكـلـ جـدـيدـ ، بـجـعـلـانـ مـنـ هـذـهـ الـظـاهـرـةـ الـبـدـيـهـيـةـ حـالـةـ تـسـتـوـجـبـ التـنـبـيـهـ وـالـدـلـالـةـ عـلـيـهـاـ .

فـاـنـ شـكـ فـيـ اـنـ نـظـامـاـ مـنـ الـانـظـمةـ كـاـنـاـ مـاـ كـانـ نـوـعـهـ وـشـكـلـهـ ، لـاـ يـكـتـبـ لـهـ التـوـفـيقـ مـاـ لـمـ يـكـنـ لـهـ سـنـادـ مـنـ الـقـوـةـ .

وإذا كان النظام سطراً فالقوة التي تسنده هي سطره الثاني ،
وبعدونها لا يُعدّ للنظام وجود . ومثلهما مثل الجسم والروح اذا
اجتمعوا كانت الحياة والا فلموت .

ومن هنا حت القرآن المسلمين على إعداد القوة ما استطاعوا
إلى إعدادها سبيلاً ، وان لا يقفوا تفكيرهم على قوة بعينها ، اذ
الأسلحة والقوى تتتنوع بتتنوع الأزمنة وتطور العقل والعلم
والصناعات ، يدل على ذلك هذه الآية (وأعدوا لهم ما استطعتم
من قوة) وهذا التكبير الذي في كلمة (قوة) ، والتکبير في نحو
اللغة العربية يفيد استغراق الجنس كما يقول العلماء ، ويفسر لنا في
هذه الآية إرادة التطور في مفهوم القوة باختلاف العصور ، كما
توجب الآية تقضي الاستطاعة إلى أبعد مداها لإعداد الوسائل
الصناعية والفنية لانتاج القوة .

وذلك ما ادركته العقلية الإسلامية حين رأت شيئاً جديداً
وواجهت أمراً واقعاً لا سبيل إلى دفعه الا بوسائله ، فانصرفت
إلى إعداد جيوش لها كل ما للجيوش الحديثة من صفات الطاعة
والنظام وآلات القتال ، وإلى إعداد أساطيل في البحر كالتي
يلكمها الغرب ، ولكن الدول الأوروبية كانت أكثر عدداً
واستعداداً وحيلةً . فالاسطول الفيجم الذي بناه محمد علي أحرقه
هذه الدول غبلاً في واقعة نافارين ، ثم تأليت عليه ، وحالت
بينه وبين اقتحام الاستانة لا حبباً بالدولة العثمانية التي تعدّها أعظم
أعدائها ، ولكن تقليلياً لأظفاف هذه الدولة الفتية التي خلفت نابوليون
على مصر ، وقوى سلطانها وامتد جنوباً وشمالاً ، حتى عاد أمرها

مرهوباً يخشى من ظهوره وتغلبه أن يكون عاملاً جديداً في صدّ اوربة عن وجهتها ، وقد يستطيع أن يجمع كافة المسلمين ويقضي على طغيانها . ثم كان من دسائس اوربة بعدهواة محمد علي ما أضعف خلفاءه وهمّد لاحتلال مصر . وبذلك أزال هذا العامل الخطير والمناسف الجديد ، ورجعت الى منافسها القديم الذي تظاهرت بمحاباته من محمد علي ، فلم ترك سبيلاً تنفذ منه للقضاء عليه الا سلكته ، حتى أخمدت أنفاسه في الحرب العالمية الأولى .

ومن هنا زالت من وجه اوربة القوة التي أقضت ماضيها عصوراً طويلاً وأثارت جنونها منذ احتل محمد الفاتح القسطنطينية وتغلبت الجيوش العثمانية في البلقان الى أن نطحت جيوش سليمان القانوني أسوار فينة ، فتداعت الدول الاوروبية الى حلف سار بتنفيذ خططه رويداً رويداً حتى أدركت غايتها على نحوٍ ما . ونقول : « أدركت غايتها على نحوٍ ما » ؟ لأننا نعتقد ان القوة لا تتمثل بآلات القتال وحدها ، وإن إشهار السلاح دائماً غير ممكن لكل أحد ، وإن وراء هذا النوع من القوة قوى أخرى بها توجد اذا فقدت ، وهي بيد الاسلام في هذا الشرق ، والوجهات الجديدة تُرى المتأمل كيف هو يدور كها ، وكيف يسعى في توفيرها لنفسه سعيًا جامحًا ليس من السهل كبحه بعد اليوم .

وأدع الاطالة في هذا الشأن ، لأننتقل الى المظهر الثاني من المظيرين اللذين هيأتهم القدر في مطلع العهد الجديد ليقطه الاسلام ، وهو المظير الدين الروحي .

وأعني به تلك الحركة الدينية العنيفة التي نشأت في جزيرة العرب ، في أثناء القرن الثامن عشر ، فلقتت إليها العالم الحديث في الشرق والغرب ، واضطررتها أن يعنى بأمرها .

وهي حركة « الوهابيين » التي احدثها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقد عاصرت فتح نابوليون لمصر ، وكانت خليقة بأن تدعى « حركة المحمديين » نسبة إلى باعثها وطبيعة دعوته إلى التوحيد الخالص الذي بعث به رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنها نسبت إلى أبيه ، وأبواه لا يد له فيها ، لأمر ما أرادته السياسة العثمانية وأشياها حين أشفقت من انتشار سلطانها أشد الشفاق ، فقاومتها ما وسعتها المقاومة ، وبالغت في تشويه غايتها ، وعزّتها إلى الابتداع والخروج على الدين ، وجعلت هذا النبذ عنواناً على ما تزعمه من ضلالها .

وندع التاريخ السياسي لهذه الحركة ، لنفرغ لوجوهها في الإسلام كما تهدي إليها كتب زعيمها ودراسات الباحثين المعايدين من الشرقيين والغربيين . والمجمع عليه أن هذه الحركة في الإسلام جديدة قديمة معاً ، والواقع أنها جديدة بالنسبة إلى المعاصرين ، ولكنها قديمة فيحقيقة الأمر ، كذلك يقول طه حسين في « الحياة الأدبية في جزيرة العرب » وهو يوضح ذلك بأنها « ليست إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقى المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية ، هي الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي خالص الله وحده ملغيآً لكل واسطة بين الله وبين الناس ، هي احياء الإسلام العربي وتطهير له بما اصابه من نتائج الجهل ومن نتائج

الاختلاط بغير العرب . فقد انكر محمد بن عبد الوهاب على اهل نجد ما كانوا قد عادوا اليه من جاهلية في العقيدة والسيرة . كانوا يعظمون القبور ، ويتخذون بعض الموتى شفعاء عند الله ، ويعظمون الاشجار والاحياء ويرون أن لها من القوة ما ينفع وما يضر . وكانوا قد عادوا في حياتهم الى حياة العرب الجاهلين ، فعاشوا من الغزو وال الحرب ، ونسوا الزكاة والصلة ، واصبح الدين اسماً لا مسمى له . فأراد محمد بن عبد الوهاب ان يجعل من هؤلاء الاعراب الجفاة المشركون قوماً مسلماً حقاً على نحو ما فعل النبي باهل الحجاز منذ اكثر من احد عشر قرناً .

ثم يقول : « ولو لا ان الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب ، وحاربوه في داره بقوى واسلحة لا عهد لاهل البدية بها ، لكان من المرجو جداً ان يوحد هذا المذهب كلمة العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر للمigration ، كما وحد ظهور الاسلام كامتهن في القرن الاول » .

ويضي على هذا ^{الستن} في بيان اثره في الحياة العقلية والادبية عند العرب من نواحي مختلفة ، وفي ايقاظ النفس العربية ، وما وضع امامها من مثيل اعلى احبته وجاهاه في سبيله بالسيف والقلم واللسان ، وما افاد العالم العربي كله من هذه الحركة العقلية الجديدة ، وهو كلام يحسن الرجوع اليه في هذه الرسالة .

ويقول لوثروب ستودارد الاميركي : « ان هذه الثورة التي اشعلها محمد بن عبد الوهاب فاشتعلت واتقدت ، اندلعت ألسنتها الى كل زاوية من زوايا العالم الاسلامي ... فتبعدت تباشير صبح

الاصلاح ، ثم بدأت البقظة الكبرى في عالم الاسلام ». والمنقسي لأطوار الاصلاح في العالم الاسلامي ، وعلاقة بعضها ببعض ، يرى في هذه الثورة امتداداً لانتفاضات قديمة عرفتها العصور الاسلامية في آثار ابن حزم في الاندلس ، ثم في ثورات اتباع الامام احمد بن حنبل ببغداد حين كانوا يرون ما يتعرض له الاسلام من لوثات اهل البدع والاهواء وما يتهدد المجتمع من سرف المسرفين في الشهوات والموبقات ، ثم في انتفاضة شيخ الاسلام تقي الدين احمد بن تيمية في بلاد الشام في القرن الثامن الهجري ، وهي اروعها التجددية وابعدها اثراً في اصلاح الفكر الاسلامي . ومن كتب ابن تيمية وتلاميذه ابن القيم وابن قدامة وابن كثير وغيرهم اقتبس محمد بن عبد الوهاب جذوره الاصلاحية ، فدرس القرآن والسنة دراسة متجردة من اوهام الخرافين واهل الاهواء ، بعثته الى هذا التجديد الذي وفق فيه توفيقاً لم يكتب لاولئك ، لأنهم قد خذلتهم السياسات ، ووجد هو من السياسة حماية له ومن قوتها نصراً لدعوه ، فكان له هذا الاثر البعيد الذي يصفه لوثروب ستودارد في عالم الاسلام الحديث ، وهو اثر يطول شرحه جداً اذا تقضينا في مصر والشام والعراق والجاز واليمن وبلاد شمال افريقيا والهند وتركية وغيرها ، والمهم فيه نتيجته من حيث انه وضع صورة الاسلام الاولى في نصابها الناص من الحقيقة ، ثم تأثير ذلك في نفسية المسلمين وتوجيهها الى المثل الاعلى ، ثم تأتي من بعد هذا وذاك دلالته على الحيوية الكامنة في الاسلام وعلى ما يحيش في نفسه من اراده الحياة

الراقصة المسلمين ، وان كان لايزال يجدهم جهلاء المسلمين وبعض حكامهم وساستهم وعلمائهم ايضاً ازوراراً عنه حيناً ، وحرباً عليه وذوداً للإصلاح حيناً آخر ، لغایات في انفسهم لم يصرها الزمان ولم يظهرها من لوثاتها الموروثة بعد .

ولما تجمس للدولة العثمانية وملفكري الاسلام بعد هذا العهد شبح المسألة الشرقية التي نجحت منذ سنة ١٨٢٥ م ، بتفاقم التدخل الاوربي السياسي والاقتصادي في البلاد الاسلامية ، وادر كوا جمیعاً ان حلول الكارثة العظمى غير بعيد عنهم ، وان عليهم ان يستنفروا الرأي الاسلامي العام ، ظهرت حركة الجامعة الاسلامية . وكان المسلمون في كل مكان يتلهفون الى العثور على وسيلة تعينهم على ان يستعيدوا سلطانهم على مصائر امورهم ، فاستجابوا لها بجهاسة فائقة ، والتمس الزعماء الوسيلة في الشعور بالوحدة الدينية ، وهي اكبر قوة مشتركة بين المسلمين تنظم شتاهم وتجعل منهم قوة مرهوبة يحسب حسابها في الصراع الدولي اذا احسنوا معها العمل على اتخاذ الوسائل الحديثة الجدية ، وكثير انصار فكرة الجامعة الاسلامية من المفكرين ، وسعوا لها طوال القرن التاسع عشر ، وبلغت ذروتها في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، وكانت اكبر دعاتها في العالم الاسلامي السيد جمال الدين الافغاني وعبد الرحمن الكواكبى والشيخ محمد عبده ، واعظم مؤيديها مسلمو الهند الذين شعرو بعد زوال دولتهم على يد شركة الهند الشرقية البريطانية بحاجتهم الشديدة الى التأييد الخارجى امام خطر الهندوكية والاستعمار البريطانى .

وما من شك في ان حركة الجامعه الاسلامية هذه قد نجحت
مقدماً منها بنجاحاً تاماً من حيث استطاعت ان توقف الشعور بالوحدة
الاسلامية وتفويته تقوية لم يبق لها مثيل منذ عصور ، وقدم
المسلمون في أنحاء الارض كل الدلائل الحسية على تأييدها وشد
أزرها ، وكان مقدراً لها ان تنجح بنتائجها لولا عوامل كثيرة
كانت تكمن وراء طبيعتها والاستجابة لها ؛ واهما ما كان
يعوزها من الملاعنة بين سياستها ووسائلها وبين القوى الجديدة
التي كانت تحتاج العالم الاسلامي ، ولم تكن الدولة العثمانية يومئذ
قادرة على تحقيق هذه الملاعنة بوجه من الوجوه ، فسياستها في
الحقيقة كانت قاعدة على خداع دول اوربة وتخويفها بشجاع اعلان
الجهاد في العالم الاسلامي ولم تُبعِّدْ له وسائله المتوجهة ، واقتصادياتها
كانت اقرب الى الانفاس منها الى الكفاف ، وصناعاتها الحربية
وغير الحربية غير موفورة ، وادارتها قاعدة على الاستبداد والرجعية
كالذى ظهر في معظم حركات السلطان عبد الحميد الثاني وتوجيهاته
وادى الى اسقاطه بعد ثلاثة عاماً من حكمه استطاعت اليابان
بمثلها ان تكون امة ذات حضارة عظيمة وقوة هائلة تجاهد بها
الدول الكبيرة فتضرب روسيا وتنافس اوربة واميركا ، ولم
يجسَّن عبد الحميد فيها من العمل غير سياسة التخويف وخفق مدخلت
ونفي الاحرار وتقريب الصيادي وتخدير الشعور العام بمخدرات
التصوف وبرود تراب القبور بدلاً من ايقاظه بنبهات الاصلاح ،
وخفقـهـ بدخانـ التـكـاياـ والـزـواـياـ بدلاًـ منـ اـحـيـائـهـ بـمـعـشـاتـ القـوةـ
واـصـاءـ المـعـاـملـ وـالمـصـانـعـ تـتـجـاـوـبـهاـ آـفـاقـ الـبـلـادـ .

وكان شأن المالك الاسلامية المستقلة الاخرى كايران والافغان
شأن الدولة العثمانية في الحكم الاستبدادي المطلق ان لم يكن افظع
وأ凄 منه .

ولقد هال زعماء الفكر في الاسلام ما لمسوه من مفاسد هذا
الاستبداد في المجتمع ، وما أدركوه من انعدام الاتساق بين
منازعه وبين روح الاسلام وما يدعون اليه من الاصلاح وبعث
حركة الجامعة الاسلامية ، وقدروا ان مساعيهم ذاهبة ادراج
الرياح حتماً مع تغلب الاستبداد وفساد الاوضاع الادارية
والاجتماعية والسياسية ، فاتجهوا الى مقاومته ، وفضح السيد جمال
الدين الافغاني ، وهو داعية الحركة الاكبر ، تصرفات الطبقات
الحاكمة ، ودعوا الى اقامة الحكم الشوروي ، وتعالت اصوات
المصلحين باستنكار الاستبداد ، ذاهبين الى انه اصل لكل فساد ،
ناعين على الحكام انحرافهم عن سبيل الاسلام في حكم المسلمين
وادارتهم ، منبهين الى عواقب ذلك ، ولم ينفعهم ما علموه من
تأصله في طبائعهم وتغدر افلاعهم عنه من تنبية المسلمين على مضاره ،
وإنذارهم الى تقويض صروحه حتى قال في ذلك الكواكبى كلامه
الرائعة المعبرة عن فورة يقينه وبعد مطارح أمله في صدر كتابه
« طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » : « كلمات حق وصيحة » في
واد ، إن ذهبت اليوم مع الرياح فقد تذهب غداً بالاوتد » .

ولقد ذهبت هذه الصيحات فعلاً بالاوتد ، وطُوحت بعد الحميد
وصولته ، وعملت افكاره وافكار بقية المصلحين عملها في توجيه
العالم الاسلامي الى تغيير انظمة الحكم واصلاح نفسيات الحاكمين

كما افادت دعوتهم الى الجامعه الاسلامية بتأثيرها النفسي في المسلمين
بما يقطنه فيهم من الشعور القوي بالوحدة الذي ما زال مائلاً في
كل ما تلها من الحركات في البلاد الاسلامية ، وان اخافت في
بلغ نتائجها السياسية لما قدمنا من الاسباب .

وهكذا كانت مهمة زعماء الاصلاح الاسلامي ، منذ بداية عهد
اليقظة ، تستهدف وجهتين : المد والبناء في وقت معًا ، ثم تقيم
البناء على اساس مهم جدًا لا يتم امر عظيم كالذي يبغونه بدونه ،
وهو تغيير نفسيّة الشعوب الاسلامية وتحريرها من ركام المنازع
الفاشدة والاهواء الدخيلة في الاسلام . وهو أساس ارشد اليه
القرآن في قوله تعالى : « ان الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما
بأنفسهم » ، وبه نقل الرسول العرب من حال الى حال ، وعليه
اقام عمود الاسلام .

وكان هؤلاء الزعماء يعلمون ان حماولة الاصلاح بالبدء بتغيير
معالم الحياة الظاهرية وحده إنما هو أخذ بذنب الاصلاح لا برأسه ،
وان ما يلاؤ جواب النفسية الاسلامية من رواسب العقائد الباطلة
يقف حاجزاً عالياً وسدآً منيعاً دون بلوغ كل أمل في تغيير
الاواع القيمة ما لم يُغيّر ويلأ بالافكار القوية السليمة النابضة
بالحياة كما يوحى لها الاسلام الصحيح .

لهذا مضى كبار المفكرين في انتهاج خطة الاصلاح الديني على
نحو ما صنع لونر في الغرب ، واننقل به الشيخ محمد عبده وتلاميذه
وخلفاؤه في اواخر القرن التاسع عشر الى ميدان كان ارجح
افقاً واكثر ملائمة للمواقف الجديدة التي دفع اليها المجتمع الاسلامي

بالتحليل والتعليق في تبيان وجهات الاسلام ، و كشفت عما هو منه وعما هو غريب عنه ومحمول عليه من العقائد والآراء ، كما حفلت بالبحث في ماضي الاسلام وحاضره ، وفي هدایته وارتقائه المعنوي وبعثه على الارتقاء المادي ، وفي موقفه من حرية الفكر والعقل والعلم والمدنية ، وفي مسالكه في السياسة والاقتصاد وال الحرب والسلم . وفي معالجته لقضايا الانسانية الكبرى ، وفي الصلة بينه وبين الاديان وادراته للعلاقات الدوليـة وشمول نظرته للوحدة الانسانية وقدرته على التهوض بها والجمع بين الاجناس المختلفة والتسوية بينها في المكانـة والعمل وتهيئة الفرص . وتتناولت ذلك كله باساليب علمية قوية واضحة القسمات ، ونسقٍ من التفكير المرتب يجمع احسن ما في القديم والحديث . هذه الحركة الخطيرة ظهرت في مصر ، فما لبثت ان جاوزت حدودها الى الملالـ الخصيب بل الى العالم الاسلامي كله ، وكانت مجلة المنار سفيرها اليـه ، حملت أفكارها اربعين عامـاً الى بلاد العرب كما حملتها الى بلاد الترك والهنـد والصـين وأرخبـيل الملاـيو ، فثارت اهتمـام المسلمين فيها بالاصلاح الـديـني وكونـه أصلـاً يقوم عليه كل اصلاح .

وترددت اصـاؤـها في آفاقـ الانـاضـول ، كما ترددت في اندونـيسـيا والـهنـد ، فـفي اندونـيسـيا يـذـكرـ كـ. كـ. بـرجـ من تـأـثيرـها في الشـبانـ الانـدونـيسـيينـ الذين يـدرـسـونـ في الأـزـهـرـ اوـ في مـكـةـ انـ هـؤـلـاءـ جـيـعاـ رـأـواـ فـيـهاـ اـلـاسـلـامـ عـلـىـ نـورـ جـدـيدـ ، لمـ يـرواـ فـيـهـ مـثـالـاـ لـلتـشـددـ وـالـجـهـودـ ؛ وـرـأـوهـ لاـ يـزالـ الدـينـ المـخـتـارـ بـيـنـ الـادـيـانـ وـحـامـلـ المـثـلـ

العليا لكل زمان مفهى والمثل الجديدة لكل زمان آتٍ ، وهو متجدد الشباب ، حامل لواء كل تقدم ، شديد في تسامح ورفق قال : « واصبح الذين اقتبسوا من نور المنار في مصر « منارات » صغرى في اندونيسيا بعد ان عادوا اليها » .

وفي الهند تختضن حركة فيها من هذه الحركة تشابه في المناوشى والمنازع والوجهات ، متأثرة بها ومستقلة بظرووفها الخاصة ايضاً ، وكان ما أشرنا اليه في الكلام على الجامعه الاسلامية من شعور المسلمين فيها بال الحاجة الى التأييد الخارجي امام خطر الهندوكية والاستعمار البريطاني قد اثارهم في الوقت نفسه لاصلاح الداخل ، فظهرت فيها حركات دينية واسعة النطاق تتبع بين حين وآخر في اثناء القرن التاسع عشر ، وكانت كلها من طراز الحركة الدينية في جزيرة العرب التي شعارها « الرجوع الى القرآن » . وكان تتبع هذه الحركات تمهدآ لتلاقي النهضة الهندية بالنهضة المصرية والتاثير بها من غير شك . وقد انبعثت النهضة الهندية الجديدة بعد سنة ١٨٥٧ م ، بدأها السير سيد احمد خان بانشاء جامعه عليگرہ وندوة العلماء ، وتبع ذلك قيام جامعات وجمعيات قوية سارت بالاسلام الى هذه الوجهة ، فتلاقي شرقه بغربه ، وتعاونت افكار شibli النعmani وسيد امير علي ومحسن الملك وصديق خان ومحمد علي والسير محمد اقبال في جناح الاسلام الشرقي مع افكار جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول ورشيد رضا والمراغي ومصطفى عبد الرازق والكواكبى والجزائري والقاسمي والألوسي ورفيق العظم وشکیب ارسلان وابن بادیس في جناح الاسلام الغربي ،

فكان من آثار هذا التعاون هذه البواكيه التي تشاهد في العالم الإسلامي .

وقد لفت اشراف هذه الحركة الواسعة انتظار الشبان المسلمين المأذوذين بتجربة اوربة في البلاد الإسلامية كافة - إلى الإسلام ، وكان فيهم ازورار عنه ، فاجتذبهم إليه ، فألقاؤه في صورة الخادعة غير الصورة الكلابية التي رسمت لهم ، ورأوا من حقائقه ما لم يخالوه فيه من قبل ، وبصروا بدساتير وآداب ومثل تعلو فوق متناول المطاعن والشكوك ، ولم يروا فيه جموداً كما لقتنوا ، واغاروا شباباً متبعداً وحياته نامية ورفقاً وتساماً وآباء ومساواة وعدلاً ، فانجذبوا إليه ، وأشربوا حبه ، وهاموا فيه ، وأولوه ما يستحق من اهتمام ورعاية ، وتعلقاً بهادفه . ورأوا في قادته من قوة الشخصية وسعة العلم واصالة الرأي وما صحب ذلك من الحماسة المشبوبة في مناهضة الاحتلال الاجنبي مع صفاء الضمير وخلوص النية ما زادهم اعجاضاً وإيماناً بالحق الذي يدعون إليه ، ووتفقوا ان هذا الذي رسموه من مناهج الاصلاح الديني هو السبيل المؤصل إلى المطامع القومية والأمنية الوطنية التي تحبس في صدور المسلمين والعرب ، وتظهر في مناهضتهم للاستعمار ، فاندفعوا فيه ، وأشروعوا أفلامهم في تبيان محسن الإسلام ، معتبرين الامانة الوطنية جزءاً منه لا تنفك عنه في حال من الاحوال .

وبهذا انذاحت دائرة التجديد الإسلامي وامتدت إلى نواحي شئ وأراب مختلفة . وقد كان جان جاك روسو والثورة الفرنسية

والفكر الاوربي الامثلة التي يحتذى بها هؤلاء ، فأصبحت عبقرية محمد ومثل الثورة الاسلامية وسمو الفكر العربي هي المثل الذي يتمسون فيها الاصلاح والبعث . وكانت القيادة التوجيهية الى علماء الازهر وجامع الزيتونة ومسجد دهلي فأصبح خريجو الجامعات الشرقية والغربية شركاء لهم فيها ، وكان نشاط العلماء الدينيين مقصوراً على اروقة المدارس والمساجد لا يتعدى منطقتها فبطء هؤلاء جناحهم على باحات المجتمع كله ومدوه الى الجماعات والجماعات والاندية والمؤتمرات والصحافة والتاليف والترجمة والنشر ، وكتبوا حقائق الاسلام في ضوء العلم الحديث بهم مستقل ووعي عميق ، ورأموا بين الدين والحياة ، وعرضوا نظريات العدالة الاجتماعية والضمان الاجتماعي والتأمين والمذاهب الاشتراكية والشيوعية والرأسمالية على حقائق الاسلام ، وقابلوا بينها ، فأثبتوا قدرة الاسلام على مواجهة المعضلات بنفسه ، ولم ينسوا مع ذلك ان يتأملوا ويطيلوا التأمل في حضارة الغرب على انها وسيلة لا غاية ينتفع من مادياتها بما يمكن للاسلام من الظهور والاستعلاء .

كذلك أخذت هذه الحركات بعضها برقاب بعض ، وسلكت سبيل الاصلاح المترقي على حسب ما تقتضيه طبيعة النشوء ، وهي ماضية الى غاياتها في قوة وروبة لتبلغ نتائجها المؤملة .

وقد تجمعـت هذه الحركات بعد هذه المراحل في ثلاث وجهات كبرى تلخص فيها جميع منازع الاسلام ، أنضجتها الاحداث ، وأبرزها الجهاد الطويل في سبيل تحرير الفكر الاسلامي من أغلال القرون القديمة وأغلال التقليد للفكر الاوربي ، وتكوين شخصية

مستقلة له يحقق بها حرية وحرية اوطانه .

هذه الوجهات هي : وحدة الاسلام ، ووحدة الاديان ، ووحدة الانسانية ؟ تأتي بعضها من وراء بعض وتكمل الواحدة الاخرى .

وقد تشير ملابسات الاحوال الحاضرة شيئاً من الاستغراب عند قوم ، وقد تشير شيئاً من الانكار عند آخرين في أمر هذه الوجهات الثلاث في الاسلام اليوم . ومن حق الذين يقفون عند بعض الظواهر دون بعض ، ويهملون التأمل في سلسلة الحركات الاسلامية منذ قرنين ومناشئها ومناصبها والينابيع التي ترويها وتبعث فيها الحياة ، وما أصابت من توفيق ملحوظ ونجاح غير منزور ... نقول : من حق هؤلاء جميعاً ان يستغروا بذلك او ان ينكروه . ولكن الباحثين المتعقدين بهن يرصدون حركات المجتمع الاسلامي وتطوراته لا يمكنون غير التسليم لهذا الذي نذهب اليه . ويقرر ماسينيون ان هناك ظاهرةً كثيراً ما يحملها الباحثون ، وهي ان الحركات الاسلامية تستعد في خفاء وصمت ، وتندلع فجأة دون ان يسبقها نذير يمكن ان يرى ، وبعبارة اصطلاحية اكثر دقةً - كما يقول - نستطيع تحليل ما يقع بأن اول الادوار هو « دور النداء الباطن » الذي يهيب بالضمير الاجتماعي وان ظلّ في حالة هدوء ظاهري ، او ظلّ كما يعبر عنه في عرف طوائف مختلفة في حالة قعود او تقىة او كتمان . واذا نضج هذا النداء ، تبعه الدور الثاني توّاً ، وهو « دور الدعوة » لاسترداد ما تعطل من حقوق الشريعة ، وسبيل ذلك الجهاد . وهذا هو المفهوم الذي

يصدق على جميع الحركات عند مختلف الجماعات وفي مختلف الاوقات .
ولا جدال في أن البيقotte الاسلامية الحديثة قد اجتازت «دور النداء الباطن» ، ودخلت في «دور الدعوة والتنظيم» في سلسلة من الحركات قامت في مختلف اقطار الاسلام من الساحل الاطلسي الى ارخبيل الملايو ، وسارت قدمًا نحو وجهتها لا تبالي ما تأخذها به اوربة من سياسات الدس او البطش او الارهاب ، فنمت غواً خطير الشأن في بعض الجهات ، ودخلت في طور الاكتمال في بعض آخر ، وخصائصها في كل جهة متشابهة وآثارها مماثلة : لأنها تنزع عن قوس واحدة ، وترمي نحو هدف واحد ، ولا مفر من ان تتلاقى يوماً ما عند نظام موحد لدولة واحدة . وربما لا يعجب ذلك الدوائر السياسية الاوربية ، او القاطنين من سasse الشرقي ، او بعض ذوي الاغراض من اجراء الاستعمار ونحوهم ، ولكن الواقع هو هذا ، لا ما يشهده هؤلاء .

أما الوجهة الى الوحدة الاسلامية ، فانما ترجع بطبعتها الى الاصل الاعظم الذي بني عليه الاسلام ، وهو عقيدة التوحيد ، وان شئت قلت 'وحدة العقيدة' . ذلك ان علاقة وحدة العقيدة بوحدة الامة هي علاقة المسبب بالسبب والنتيجة بال前提是 ، فعقيدة التوحيد ألمت العرب فكرة الحرية الشخصية والدينية ، وحررت عقولهم من الوثنيات الموروثة ، وجعلتهم على عقيدة واحدة ترفع النقوس عن الخضوع لكتانٍ من كان الا لموحد الدين .

وحدة العقيدة الاسلامية كونت وحدة الامة الاسلامية ، وحققت للإسلام الظهور والاعتلاء ، والمسلمين الاستخلاف في

الارض . وفي تاريخ الصدر الاول وتكوين دولة الاسلام شواعد ذلك وبناته .

وافتراق العقيدة من بعد ، وما نتجل عنده من تبدل حالة المسلمين العقلية والنفسية والاخلاقية ، أفسد مقومات الحياة الاسلامية ، ورجوع المسلمين من الاسلام الى الجاهلية جهلاً وانقساماً وجحوداً وموت هم ، واطمع متواطئ الشعوب ان يطغوا عليهم ويستعبدوهم في عقر اوطانهم .

وهذا ما جعل جميع الحركات الاسلامية تصرف جهدها الى هذا الاصل الاعظم وتوطيد بناء المجتمع الحديث عليه ، فعمدت - ولا تزال - الى خطة ناجحة في توحيد العقيدة وفي تربيتها ، من اظهر مميزاتها تشخيص حقيقة الاسلام بتطهيره بما أصقته به الفرق المبتدعة والمذاهب الضالة والدعوة الى الاجتماع على القرآن اجتماعاً ببطل به هذه المذاهب قدیمها وحدیثها جملة ، وتتوحد العقيدة والاخلاق وجميع نظم الحياة ، وتعلو الاخوة الاسلامية ، وتكون حدود الاسلام هي وطن المسلمين ، انا المؤمنون اخوة والمؤمنون بعضهم اولياء بعض ، وما وسع السلف الصالح وكان مبعث عزهم وعلوم يسع المسلمين في كل مكان وزمان ويكون مصدراً لاستعادة ما أخذه من المجد والسلطان .

وقد آتت هذه الدعوة أكلها الطيب ، فزالت تلك الحدة التي اتسم بها اهل المذاهب الاسلامية القدماء ، وضعف الشعور بما كانوا يحسونه من الفوارق من قبل ، وظهرت في المجتمعات الاسلامية طلائع قوية للتسامح والتعاون على الخير في شؤون

أما الحركات الوطنية المحلية ، التي تسمى قومية أحياناً ، فهي شعور وطني محض أرهف من حده الاستهمار السياسي والاقتصادي يتوجه إلى إعادة تنظيم الجماعات ويستنفر القوى скамене مقاومته والتخلص من جبروته . فهي بسبيل من وجة الاسلام في هذا الشأن ، ولليست عصبية بين الشعوب الاسلامية ، ولا هي كعقيدة الجنس النسخة التي قامت عليها حياة اوربة الى عهد قريب .

والمعروف من تأريخها وخصائصها إنما حركات تتضاد مع الإسلام في وجه الاستعمار، في كل مكان، وهي وحدات، نعم

وحدات احدها عدوان الدول الاوربية على العالم الاسلامي واقتطاع كل دولة جزءاً منه تحكم فيه ، لا انها هي كذلك او ت يريد ان تكون كذلك . وهي كلها تكافح هذه الدول البابغية للتحرر من سلطانها ، ووجهتها جميعاً الى الوحدة الكبرى الشاملة من غير شك ولا جدال .

والمرابقون الاوربيون يعترفون بان شعور المسلمين بالوحدة سلاح يدافعون به عن انفسهم ، ولن ينبدوه مستخفين به ، لانه يسبيغ القوة على هذه الوحدات المتفقة ؟ ويلاحظون ان النزعات السائدة تسير بقوة في سبيل الاحتفاظ بأساس اسلامي للقوميات الجديدة ، وان السعي لتقويتها هو من اهم الحركات في العالم الاسلامي اليوم .

ويقرر «جب» أن ثورة المسلمين على مبادئ الحضارة الاوربية التي تعارض الاخلاق ستدفع المثقفين منهم حتماً الى ان يزدادوا اصراراً على الدعوة الى الاخلاق السامية ، وان يصروا على مبدأ الاخاء الانساني الذي هو اساس الاخلاق الاجتماعية في الاسلام . وان النزعة الاسلامية آخذة في القوة على اسس اخلاقية ، ولا سيما مع تزايد النفوذ السياسي للطبقة الوسطى التي اثرت فيها على الدوام تعاليم الاسلام الخلقية . وكلما زادت روح الديمقراطية في القوميات المقبلة ، زاد سلطان مبادئ الاسلام على العلاقات السياسية .

ويقول : « ان عاطفة الوحدة تدلّ دلالة حسوسه على وجودها بطريقة مطردة رائعة ، فلامتحن حادثة تمس حياة العالم

الاسلامي من غير تعليق حماسي حاد في صحفة تذيع في نصف آسية وافريقية . وحين تأخذ هذه الحوادث شكلها خطيراً سواء في مراكش او ليبيا او فلسطين او الهند او اندونيسيا تأتي قرارات الاحتياج من كل فج وكلها متشابهة في اللهجة بل في العبارة ، وليس عهداً بعيداً بالجزء الاكبر من العالم الاسلامي حينما كان يخيل لمن يراه انه في سبات عميق حتى حسبه بعضنا قد فقد الحياة . فاما اليوم فان حادثة صغيرة مثل قتل الشهيد عمر المختار تهز ما بين مراكش وجادة ، وكأنها صدمة كهربائية ، وتولد تياراً من السخط الم��ب . حقاً ان ذلك الشعور المتولد يخمد سريعاً ، ولكن توامر اثر تلك الصدمات س يجعل رد الفعل اكثر قوة ، وسيزيد العالم الاسلامي شعوراً بوجوده » .

ونقول : ان هذا الشعور قد بلغ من نفوس الشعوب الاسلامية غايتها ، فهم يشعرون انه ليست هنالك شعوب اسلامية ولكن امة اسلامية وطنها حدود الاسلام ، وبهذا الشعور بدأ الت الحكومات الاسلامية تحمل ما عسى ان يحدث بينها من وجوه الخلاف . ولا تخسب ان امة من هذه الامم الاوربية تنازعت وامة اخرى امراً بينها ، ثم استطاعت ان تنزل عن احقادها وتراثها ، او تمحى تزاها بزيارة يقوم بها ملكها لتلك الدولة او يقوم بها وفد اهلي لا صبغة رسمية له كالذى يستطيعه ملوك المسلمين ووفودهم في هذا العصر حين يقع بين دول الاسلام الحاضرة شيء من الخلاف كما يقع في العادة بين الاخ واخيه . ولست اذكر ناسياً حين اذكر كيف ضرب الملك فيصل المثل الاعلى بنزوله

عن تراثه عند الملك عبد العزيز بن السعود فذهب إليه يصافحه ويشاوره فيما فيه خير العرب والمسلمين ، وكيف زار أمبراطور ايران فجسم بزيارته النزاع الذي نشب بين العراق وحكومته على بعض الحدود ، أو كيف استطاع وفد اهلي ان يجسم النزاع بين اليمن والملكة العربية السعودية ويرجع الجيش السعودي عن صنعاء بعدما طرق ابوابها بذكير المتخاصمين بالاخوة الاسلامية وحقوقها في رقاب المسلمين .

وهذه الوجهة الى الوحدة الاسلامية التي تظهر اليوم عند المسلمين هذا الظهور القوي من ادراكيهم النام لحقيقة الموقف الذي وضعوا فيه ، تصبحها في المجتمع الاسلامي في الوقت نفسه ظاهرة رائعة من وجاهة الاسلام الى توثيق الصلة بينه وبين الاديان الأخرى . وهي وجاهة قديمة معروفة من اصول الشريعة وسيرة رسول الاسلام والتاريخ الاسلامي ، يحسن بنا ان نقف عندها وقفه قصيرة ، ثم نعرض لما عرّاها من بعد ، ثم كيف عادت الى الظهور في هذا العصر ، لتكون مناسبتها بينة ، ولئلا يحسبها المتأثرون بالسياسات التي غرستها يد اوربة في الشرق « مفارقة » لانسجام مع الاندفاع الى الوحدة الاسلامية .

فنالعلوم بالضرورة من الدين ان الاسلام انا هو دعوة الى اليمان بالله الواحد الخالق ، ورسالة مكملة لشريائع السابقة ومعبدة للجنحيفية الفطرية التي تستند الى وحدة الله ، وتترتب عليها وحدة خلقه . يقول القرآن : « وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه » ، ويقول :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كثيرون على المشركون ما تدعوهم اليه » . ولم يختلف الرسول صلى الله عليه وسلم مع اهل الكتاب الا حيث كان تنزيه الخالق موضع شك ، وقد كان كثير التسامح معهم رفيع الادب في بجادلهم ، يقول القرآن : « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن » ، ويقول في النصارى : « ولتجدمن» أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ، وانهم لا يستكثرون » ، ويقول في الملل الكتابية : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم اجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وبالإيان بالله وحده لا شريك له تتساوى عنده القبائل والشعوب والاديان والرسل لقوله تعالى : « قولوا آمنا بالله وما انزل علينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسياط وما أوتني موسى وعيسى وما أوتني النبيون من ربهم ، لا نفرق بين احد منهم ، ونحن له مسلمون » .

وسيرة رسول الاسلام مع اهل الاديان جميعاً سيرة كلام رفق واحسان وعدل ، لأن دينه لا ينظر الى غيره من الاديان الا هذه النظرة الجامعية . وقد وضع اساساً صالحًا عادلاً يحدد موقفه من اهلها جميعاً فقال : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » ، فما حاد عن هذا الاساس . وكان من بذلاته عطفه ان أصرر الى النصارى ، فتزوج من قبطية اسمها مارية

كانت أم المؤمنين وأم ولده ابراهيم ، كما تزوج من صفية وهي يهودية ، ليتحقق روابط الصلة ، ولم تفت هذه فرصة دون أن يوصي باهل الكتاب خيراً .

وفتح المسلمون البلاد التي كانوا يقطنونها فما أطاحوا بحقوق أحد منهم ، وكان من أصول السياسة الإسلامية المساواة المطلقة بين المسلم وغير المسلم حتى في بيت مال المسلمين ، فهو ليس بمحصور على معاونة المسلم حسب ، بل 'يشرك' فيه غير المسلم بلا قيد ولا شرط . وفي قصاص عمر بن الخطاب من ابنه لأجل حق امرأة مسيحية قبطية أكابر الشواهد على العدالة الإسلامية ، وفي قوله : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » كل مبادئ الإسلام من الحرية والأخاء والمساواة .

ويعرف السير توماس آرنولد في كتابه « انتشار الإسلام » بأن « الكنيسة المسيحية قوية وتقدمت في رعاية المسلمين وحكمهم ، وأن جميع المذاهب المسيحية كانت تتمنع بالرعاية والتسامح من الحكم المسلمين على حد سواء ، بل هؤلاء الحكماء هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعض ، ويケفّلون حرية الحياة والمملوك والعقيدة الدينية ، تمنع المسيحيون - وعلى الأخص في المدن - بثروات ونجاح كبير في عصور الإسلام الأولى ، فكان منهم أرباب النفوذ الواسع في قصور الحلفاء » . ومن المؤسف حقاً أن قابلت أوروبية هذه السماحة بالسماحة ، وحملتها سياساتها الميكافيلية في عهودها الطوال منذ العصور

القديمة الى هذا العصر على ارتكاب موبقات وفظائع ومذابح لا حصر لها لم تعرفها شرائع الغاب ، وعيثت في وحدة الشرق باسم حماية الامتيازات وحقوق الاقليات وأجرت من دماء المسلمين وغير المسلمين أنهاراً ، حتى أصحرت نباتها للجميع عن الاستبعاد والاستعمار ، فانجلت الفشاوات عن الابصار ، وادركت الاقليات من الحقيقة ما ادركته الاكثريه .

لذلك كان على الاسلام في غمرة صراعه للاستعمار ان يصرخ عن محضه ، ويكشف عن وجهته ونيته غير متملّقة ولا مداهن . فوضع امام الاعين المبصرة والقلوب الوعية كتابه الصادق ، وتأريخه الناطق ، وشعوره السليم . فصدقته غير متعددة ولا متشككة تصديقاً لا يتطرق الشك الى عاطفته الحالمة النزية ، واجابتة على تساحه واخلاصه فأيّدت مبدأ اعتراف الدولة بالاسلام ديناً رسمياً في مصر وسوريا والعراق ، وظهرت رأيات المظاهرين في الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، وقد نسجت خيوطها اهلة وصلباناً ، وهالـ Madame Jehan d'Ivray دام جهان دي فراري ان شهدت قسيسين اقباطاً يعظون في المساجد ، وعلمهاء من شيوخ المسلمين يعظون في الكنائس طلبة من السوريين والموارنة والمسلمين ، وسيدات مصربيات وتركميات جمِعاً على وئام وثيق واتحاد مكين في سبيل القضية الوطنية ، وقالت : إنما قدمت اصبحت تشهد من ذلك العجائب والغرائب في هذه الديار .

وقوي هذا التعاون في اوطان الملال الحصيبي ، وخاصة في فلسطين ، حيث ظهرت الصهيونية ت يريد الاستيلاء على المسلمين

وال المسيحيين الشرقيين معاً ، ويلاحظ ج . كمبهاير ان تجاوب المشاعر بين المسلمين وال المسيحيين الشرقيين جعل كل من الشعور الاسلامي والمسيحي يؤثر في تطور الآخر تأثيراً خفياً ، ولكنه قوي . وقد دهش الاب ف . ت . بناية للعلاقات الودية بين المسلمين وال المسيحيين في العراق ، واعجبه غاية الاعجاب ، وهو يتحدث عن المنشآت الاسلامية الحديدة التي تقص الصحف أمرها ، أن رأى المسلمين اليوم في العراق يخذلون حذو المصريين ويؤسرون بمساعي بعض العلماء هذه الجماعات الاسلامية في حماسة من غير ان نفس المسيحيين بكلمة جفاء واحدة .

ونحن نرى في الجانب المسيحي الادباء المسيحيين العرب يمازجون بين عواطف الاسلام والعروبة ، ويهذبون بأدفهم المشاعر ، ويعملون على تقريب الوجهات كما يعمل عليها المسلمون ، ولهم الآيات البينات في التغنى بمحاسن الحضارة الاسلامية ، ومنهم من فني في حب محمد رسول الاسلام كالاستاذ مارون عبود الذي ابت عروبه الا ان يتيم فديسي ابنته باسم بانيها الاول ، والاستاذ لبيب الرياشي الذي وصف فضائل محمد بما لم ينهض به منه كثير من المسلمين ، وامثال شibli ملاط والياس فاعور ونجيب نصار وجورج سلتي وغيرهم ، وكلهم اشاد في شعره ونشره بمحمد ، وتغنى بالاسلام ، واستعدب لغة القرآن .

ولست ادرى ماذا بقي بين هذه النفسية المنصفة الصافية وبين الاسلام ؟ ومن المسلمين من فنتهم اوربة عن دينهم فما التزموا فروضه وأوامره ، ولا ظفر منهم محمد ولا العروبة ولا حضارة

الاسلام بكلمة اطراه مع تزيهم على نظرائهم بالبيان .
كذلك التقى الاسلام بال المسيحية في هذا العصر ، واعادت
مواقف احدهما من الآخر الى الاذهان مواقف العرب المسيحيين
في عهد الفتوحات الاولى ، وقتلهم في الصدوف الاسلامية انتصاراً
لعروبتهم في مثل واقعة الجسر وواقعة البويب؛ وعاد الطابع
القديم الذي طبع به الاسلام الشعوب على التعاطف والتراحم
والمواءات ، كأحسن ما تطبع به الآمال .

ونحن نعتقد ان هذه الطلائع من تصفية العقول وتركيبة الضمائر
والرغبة الصادقة في التقاء وجهات النظر عند اصول الاديان جميعاً ،
وهي الاعانة بالله وحده لا شريك له ، ستنقل الناس حتماً - كلما
ازدادوا وعيًّا وادراكاً لتأثير هذا الأصل في الحياة البشرية - الى
الافق الرحيم الذي يليق بالانسانية ان تنتقل اليه بفطرتها الا وهو
الاخاء الانساني العام .

فلا مرية في ان بناء المدينة الانسانية الحق اتفا يقوم على هذين
العمودين : الاعانة بالله ، والاخوة الانسانية الجامحة في عالم واحد .
ومتأمل في الاسلام يجده حريصاً اشد الحرص عليهما ، فهو قد
دعا الى التوحيد الخالص وبالغ في الدعوة اليه والتوكيد عليه كما بالغ
في احترام رسالات الله التي دعت الانسانية الى هذا التوحيد ؛
ليكون الاعانة بالله واحداً في حقيقته ومظاهره . ثم عطف على
الروابط الانسانية فركزها في اساس واحد هو بديهي جداً
وغامض جداً في وقت معماً ، هو غامض لأن الناس ابتعدوا عنه
كثيراً ولأنه يغيب عن الاذهان في غمرة هذا الصراع والتکالب

بنوازع الجهل والمعصيات ؟ وهو بديهي لانه قريب من نفس كل انسان لو فكر الانسان في نفسه وانسلخ من نوازعه الشريرة لحظة واحدة ، وهو بديهي فالناس جميعاً من نفس واحدة ، وانهم لذلك اسرة متشابكة الاجزاء متكاملة الاعضاء وليس بينهم اقربية تحترم ، ورحم توصل ... ولابقاء هذا الاصل سليماً ايضاً امر الاسلام بانتقاء الله فيه بالاحترام والتواصل والتعاون والمحبة ، ليتهروا جميعاً الى عالم واحد لا يستعلي فيه قوي على ضعيف كما نشأوا من نفس واحدة ، وليعيشوا سعداء بالرحمة والحنان والحب ، وذلك قوله تعالى (يا ايها الناس ، اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منها رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تسألون به والارحام ، ان الله كان عليكم رقيباً) .

على هذا النحو او على هذا الاساس صاغ الاسلام مدنية ، وحقق جمع الاجناس وتفاهمها وتعاونها . وله في ذلك ماض مجيد مشهور . ويعرف رجال الدراسات الاسلامية من الاوربيين بأنه « لا توجد مدنية اخرى سجل لها من النجاح في ان تجمع كثيراً من اجناس الانسان المختلفة مع التسوية بينهم في المكانة والعمل وتเทئء الفرص - كما سجل للإسلام » .

ويلاحظون « ان الجماعات الاسلامية العظيمة في افريقيا والهند واندونيسيا ، والجماعات الصغيرة في الصين ، والجماعات الصغرى في اليابان : كلها تبين ان الاسلام لا تزال له القوة على ان يتآلف العناصر التي لا سبيل الى التوفيق بينها بسبب الجنس والمقاييس » ، ويرون انه اذا لم يكن بد من ان يحل التعاون محل

الشقاق بين المجتمعات العظيمة في الشرق والغرب ، فان وساطة الاسلام شرط لا بد منه ؛ لأن في يده الى حد كبير حل المعضلة التي تواجه اوربة في علاقتها مع الشرق ، وان اتحدا زاد الامل زيادة لا حد لها في بلوغ نتيجة سلية » .

على هذا النحو صاغ الاسلام المدنية الانسانية ، وعلى هذا النحو يعني مفكروه في هذا العصر باظهار وجهته الكبرى اليها ، لا يألون في عرض حقائقها وبيان مناهجها والموازنة بين الاصول التي تقوم عليها الحضارة الاسلامية والاصول التي تقوم عليها حضارة الغرب ، لينقلوها من التراث العقلي المجرد الى الميدان العلمي الواقعى ، ولينقدوا هذه الانسانية المعدبة التي تضطرب أحشاوها بالرعب ، وتضطرم قلوبها بالاحقاد الآكلة ، ويعد بعضها البعض أفعظم ما يسمى اليه الخيال الجمجم من صور أدوات التدمير والاففاء ، حتى اصبح السلام حلما لا سبيل الى تحقيقه ، وأمنية معسولة ولكنها برق خلب وسراب كذوب .

والواقع ان الاساس الذي تقوم عليه حضارة الغرب لا يمكن ان يسلم الى غير هذه النتائج ، وستظل الانسانية تعاني أزماتها الحاضرة ما دام هذا الاساس هو الذي يتصرف بالعقل والنفوس ويخلق فيها الظما القاتل الى المال وبيح التنافس والنضال للحصول عليه مسقطاً للمعاني الانسانية السامية والمبادئ الخلقية الكريمة ، مبادئ الايثار والمحبة والاخوة ، فلا يكاد يمسكها ولا تكاد تعلق بها .

ومن هنا كان في اوربة هذا التناحر الذي لم تعرف الانسانية

في عصورها الطوال أوحش ولا أضرى ولا أفتى منه ، حتى عم
بلاؤه الأرض كلها لم يسلم منه القابعون في قلل هملايا ولا المنعزلون
في سهوب إفريقيا .

يصف الاستاذ جود الفيلسوف الانجليزي المعاصر في كتاب
له ، تطويره ما ازلت إليه اوربة فيقول : « ان العلوم
الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلة ، ولكننا
نستعملها بعقل الاطفال والوحشين » ويقول : « ان
هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة وطفولتنا الاجتماعية
المخجلة نواجهه عند كل منعطف ومنعرج ، نحن نستطيع ان نتحدى
من وراء القارات والبحار ، ونرسل الصور بالبرق ، وننصب
اللائلكي في بيونينا ، ونسمع في سيلان دقات (Big Ben)
الساعة العظمى تضرب في لندن ، ونركب فوق الأرض والبحر
وتحتها ، والاطفال يتحدون على الاشلاء البرقية ، وآلات الكتابة
صامدة ، وغلا الاسنان من غير ايجاع ، والزروع تنمى بالكهرباء ،
والشوارع تفرش بالمطاط ، وأشعة رونتجن (X-rays) نوافذ نطل
منها على داخل ابداننا ، والصور المتحركة تتكلم وتتفىء ، ويكشف
عن الجرمين والمتغاليين باللاسلكية ، والغواصات تذهب الى القطب
الشمالي ، والطيارات تطير الى القطب الجنوبي . ومع ذلك كله لا
قدر في وسط مدننا الكبرى ان شخص رحمة يلعب فيها أطفال
الفقراة في راحة وسلام ، ونتيجة ذلك أثنا نقتل منهم ألفين ،
ونخرج منهم تسعين الفا سنويأً . قال لي فيلسوف هندي في انتقاده
اللاذع لاطرائي لعجائب حضارتنا ، وكان بعض سواق السيارات

قد نجح في قطع ثلاث ميل او أربع ميل في ساعة على رمال Pendine وطارت طائرة من موسكو الى نيويورك في عشرين او خمسين ساعة (لاؤذكر) قال الفيلسوف : نعم ، انكم تقدرون ان تطيروا في الهواء كالطيور ، وتبهوا في الماء كالسمك ، ولكنكم الى الان لا تعرفون كيف تمشون على الارض » .

والاسلام حين ينظر الى الغرب فيجد فيه هذا التفاوت العظيم بين ارتقائه المادي ~~هذا~~ الارتفاع الذي لا مطمح وراءه ، وبين انحطاطه في الجانب الروحي هذا الانحطاط الذي جعله يستعمل قواه بعقل الاطفال والوحوش كما يقول الفيلسوف البريطاني ، ولم يعلمه كيف يعشى على الارض كما يقول الفيلسوف الهندسي ... بأسى غاية الأسى على المصير الذي يوجه الغرب العالم كله اليه ، ويتوسّع كل التوجّع أن يراه وهو يقطع ارحامه كما يقطع رحم الإنسانية في كل مكان ، ولا تبالي دولة الكبرى - في سبيـل نفسها وحدها - أن تتفق فتطرد العرب الفلسطينيين الابرار من مواطن اجدادهم وآباءهم باليهود الاشرار الذين يدعونها بالمال الوسخ إعاـنة لها على انتاج آلات التدمير والخراب ، او ان تزيل أمـة من الوجود بقـنبلة واحدة ينطلق منها مليون عـزرائيل يتخطـفون بلحظة واحدة ارواح الشيوخ العجاف والأوانس الطاف والاطفال الملائكة الابرار ، فلا تبقى على بناء مشيد ولا زرع قائم ولا حـيوان من هذا الحـيوان الاعجم الذي يؤسس الغربيون جـمـعـيات الرـفـقـيـاتـ من أـذـىـ الـأـنـسـانـ !

والاسلام بين توجـعـهـ وأـسـاهـ يـتـجـرـكـ وـيـتـحـفـزـ ،ـ وبـهـ منـ الغـربـ

اغلال ، ليحطمها ؟ ولكن لا تحطم من يريد أن يثار وينقم ؟
لان العفو عنده أساس معاملاته ، وهو اقرب للتفوى ، بل تحطم
من يغار على كرامته أن تذال ، وعزّته ان تَذَلَّ ، ويقظته
أن تخدر وتنوم وتبعـد عن واقع الحياة ، وقدرتـه ان تـكـبـلـ
وتحـمـدـ بنوازع الاثرة والطغيان ... ليعود مـرـةً ثـانـيـةً ، فيصوغـ
ارادته بـنـشـرـ رـوـحـ الاخـوـةـ الانـسـانـيـةـ فيـ عـالـمـ وـاـحـدـ دـعـامـتـهـ نـظـلـمـ
روـحـيـ، يـكـونـ اـسـاسـاـ لـنـظـامـ التـهـذـيـيـ وـاـسـاسـاـ لـقـوـاعـدـ الـخـلـقـ وـالـعـمـلـ
لا يـضـحـيـ فـيـهـ بـشـيـءـ مـنـ مـبـادـيـ الـاخـلـاقـ فـيـ سـبـيلـ التـنـطـيمـ الـاـقـتصـادـيـ
وـمـعـاـلـةـ الـافـرـادـ وـالـجـمـاعـاتـ .

وبـمـئـدـ تـسـيـخـ هـذـهـ المـصـنـوعـاتـ الجـمـادـ لـلـخـيـرـ وـحـدـهـ وـلـلـخـيـرـ كـلـهـ
بعـقـولـ الـحـكـمـاءـ وـالـاـنـسـانـيـنـ لـاـ بـعـقـولـ الـاطـفـالـ وـالـوـحـوشـ ، وـتـعـلـمـ
اوـرـوـبـةـ حـيـنـ تـطـيـرـ فـيـ السـمـاءـ كـيـفـ تـشـيـ عـلـىـ الـأـرـضـ ، ثـمـ تـسـيـرـ
وـبـسـيـرـ رـكـبـ الـاـنـسـانـيـةـ إـلـىـ سـعـادـتـهـ المـنشـوـدـةـ فـيـ وـثـامـ ، وـيـنـعـمـ
الـشـرـقـ وـالـغـرـبـ جـمـيـعـاـ بـنـعـمـةـ السـلـامـ ، وـيـكـونـ الدـيـنـ كـلـهـ اللـهـ .

صدى المحاضرات

بتلهم الدكتور نقولا زباده

•
— ١ —

اما وقد وصل القارىء الى هذا المكان من الكتاب ، وكونه لنفسه فكرة عن هذه الابحاث التي عرضها المحاضرون على الجماعة فمن حقه ان يعرف القضايا التي اثارها اعضاء المؤتمر ، وتناقشوا فيها ، ولست ازعم اني استطيع ان اضع هذه القضايا جميعها امام القارىء ، لذلك فانا مضطرا الى الاجتزاء بالاهم منها ليتمكن القارىء من النفوذ الى هذه المشاكل ، لعله ينتقل هو منها الى اشارة مشاكل اخرى .

فالتعليق على محاضرة الدكتور احمد زكي بك قال لما فتح باب المناقشة : « وقد انتشرت المادية بين الجاهير ورافقتها الاخلاص ، فعم القلق وطفى الحروف وساد الحور واصبح الناس اعداء بعضهم البعض يتراشقون بالتهم ويترافقون الى كتل وكتل شرقية وغربية تترbus كل منها الحقيقة بالاخري وتهدد باستعمال القبلة الذرية والميدروجينية وتهدد بالتالي بالفناء ، فناء هذه المدينة الغربية

المادية التي لا ضابط روحي لها ولا وازع من ضمير او وجداً ، فالعلم قد حطم الروح ، وجر الى الاخلاص وهدر القيم الروحية ، والعلم وحده كفيل بان يسمو بالروح ، ويهدينا سواء السبيل » .

« ومشكلة اليوم هي تلقيح الحضارة الغربية المادية بالروح الخيرة وقيمها الرفيعة . فنحن لا نخشى الحضارة الغربية ، ولكننا نخشى ان نجرف معها تراثنا الروحي ، ولكن هذا التراث لن يصدق امام المدنية الغربية إلا اذا آمنا بالعلم وآمنا بشرعه التطور والارتقاء ، فعام الهجرة هو غير عام ١٩٥١ وسيكون عام ١٩٦١ غير هذا العام » وهذا التعليق اثار السؤال الاول الرئيسي وهو : « هل حقاً ان الحضارة الشرقية روحية مبدئياً ، بينما نجد ان الحضارة الغربية خلو من الحياة الروحانية ، بل هي مادية صرفة ؟ » وتلا ذلك قضية تفرعت عن الاولى وهي : « ما معنى القيم الروحية التي نحاول ان نتبينها في الحضارتين او العالمين ؟ أهي التعاليم الدينية السماوية ؟ وفي هذه الحالة تكون موجودة في الحضارتين ، ام هي شيء آخر ؟ » .

والذى خلص اليه المتناقشون هو ان القيم الروحية هي القواعد الخلقة والمثل العليا المبنية على التعاليم الدينية والمناطوية على النظر الى الانسان من حيث انسانيته .

واشتهد الجدل حول روحانية الشرق وروحانية الغرب . وكان الفرق بين وجهات النظر كبيراً ، والذى بوز في النهاية من هذا النقاش هو ان الحياة الروحانية لا بد من وجودها في حضارة اساسها العلم وروحه والمساواة التامة في جميع مراافق الحياة .

ولفت نظر الموجودين الى التفريق بين الروحانية الشكلية التي قد تكثُر في حياتنا ، والروحانية العملية الاصيلة .

وعرض القوم الى قضية جمود الحياة الفكرية في عالمنا العربي والبحث عن اسبابها . والنقطة التي دار البحث حولها هي العلاقة بين جمودنا الفكري وبين سيطرة الميتافيزيقيات في حياتنا . و اذا كان ذلك هو السبب فهل نستطيع ان نتخلص عن هذه الاجهات الميتافيزيقية لنبعد سلطانها ؟ وهل مثل هذه الخطوة ضرورية لنتمكن من قبول العلم دليلاً ومرشدآ في حياتنا واساساً لحضارتنا ؟ وهل في قبولنا العلم في هذه المرتبة ما يحطم حياتنا وكياننا ؟ او ان مثل هذا السير يؤدي الى تقوية ترايانا الروحي بحيث يستطيع ان يلقيح الحضارة الغربية نفسها ؟

-٢-

وبحاضرة الدكتور المحمصاني انتزعت من المعلق هذه الاراء ، التي مهدت الطريق للنقاش ، وهي : « ان الشرائع جميعها اثرت للناس ... فهي اذن ذات صبغة اجتماعية ، او على الاصح ذات غاية اجتماعية لا يجوز ان تغيب عنibal . وجماع هذه الغاية الخير والنفع والرشاد للناس في كل زمان ومكان . ولقد وهم من اعتبر العبادات منوطه بالخلق وحده . فهي لا تعدو ان تكون وسيلة - كسائر اقسام التشريع العام - خير المجتمع . اذ القصد منها اولاً توسيع الشعور بالرباط الانساني عن طريق جمع شمل الانسانية حول قطب واحد أحد . وثانياً استمرار يقظة الضمير الانساني .

ه ولقد فتح التشريع الاسلامي ابواباً لا باباً واحداً للاحتفاظ على الغاية الاجتماعية كما بين الاستاذ المعاشر . وما الاجتهاد والاجماع وقاعدة تغير الاحكام بتغير الزمان وما الى ذلك الا مسالك لصرف التشريع نحو غايتها الاساسية ، وهي تحقيق مصلحة المجتمع الانساني في كل زمان ومكان .

ه اذا صح ما ذكرنا وجب على المشرعين ان يلتقطوا الى امرین : الاول عدم الفصل بين الشرع والانسان ، اعني عدم فصل الشرع عن هدفه الانساني . والامر الثاني معرفة مقام الانسان عند ربها الذي اكرمه وسخر له سائر خلقه وايفاء هذا المقام حقه وعدم التغريط به .

ه واؤد اخيراً ان اشير الى ان التشريع تابع للمجتمع والمجتمع متتطور حتى . ويتطوره ينحي بعض القوانين ويعدل بعضها ويتطلب قوانين جديدة . ولا يتربت على ذلك الغاء الشرع البتة ، لأن مواده تظل ثابتة في مكانها تتعلق عند الحاجة اليها . وتظل روح العدالة والمصلحة العامة المنبثقه من الشرع سائدة في جميع ما يشرع به في حدود القواعد المتفق عليها . ومن جهة اخرى فان المجتمع كلما ارتقى . قليلاً و قالياً . - قلت حاجته الى التشريع ضرورة . ولا شك في ان الاستقرار الاقتصادي المتنين ، والعدالة الاجتماعية الشاملة ، والعلم والتربية الحقيقين ، يجعل المجتمع المتوافرة فيه اقل حاجة الى قوانين » .

وقد كان الدكتور المصطفى قد انتهى الى القول بان تاريخ التشريع في الاسلام اظهر ان هذا التشريع كان قابلاً للتطور

والنمو وملاءمة الامكنة والازمنة المختلفة التي مرت عليه .
والامر الذي اثاره المؤتمر في المناقشة هو هل هذا الذي صاح في
الماضي يمكن ان يصلح في الحاضر والمستقبل ؟ واذا كان ذلك
يمكنا فالي اي حد يمكن تعطيل بعض نواحي الشرع رغبة في
مجاراة الحاجات الطارئة ؟ او هل من الممكن التخلل في بعض
النواحي بحيث تخلل مشاكل لم تكن قبل قائلة في المجتمع ؟ والى
اي حد يجوز ان تعدل او تبدل قوانين الاحوال الشخصية بحيث
تؤدي الى تساوٍ تام بين رعايا الدولة الواحدة على اختلاف في
مذاهبهم ؟ وهل يمكن فصل الدين عن الدولة في الاسلام ؟

- ٣ -

وحاضرة الاستاذ الخالدي ، التي دارت حول المدرسة في
اطارها التاريخي واتجاهها كاداة اجتماعية ، استخرجت تعليقاً من
رئيس الجلسة اذ قال : ألحـ (الحاضر) كل الاخـ عـلى تحسـين
المدرسة ، ووضع مرـكـزـ الثـقلـ فيـ بـحـثـهـ فيـ المـناـهـجـ وـخـطـطـ التـعـلـيمـ
وـتـحـضـيرـ الـمـعـلـمـينـ . ولـكـنـهـ لـمـ يـتـعـرـضـ مـبـاـشـرـةـ إـلـىـ نـقـطـةـ اـسـاسـيةـ
أـخـرـىـ تـسـتـدـعـهـاـ مـقـدـمـتـهـ التـارـيـخـيـ إـلـاـ وـهـيـ عـلـاقـةـ الـجـمـعـ بـالـمـدـرـسـةـ .
ولـعـلهـ اـغـفـلـ هـذـهـ النـاحـيـةـ عـدـاـ لـاعـتقـادـهـ انـ مـوـضـوـعـهـ يـدـورـ حـولـ
فـكـرـةـ الـمـدـرـسـةـ وـحـسـبـ . ولـكـنـنـاـ فيـ الـوـاقـعـ لـاـ نـسـتـطـعـ الفـصـلـ
بـيـنـ الـمـدـرـسـةـ وـالـجـمـعـ ... فـالـمـدـرـسـةـ تـعـكـسـ الـنـظـامـ الـاجـتـاعـيـ الـذـيـ
تـوـجـدـ فـيـهـ . ولـذـلـكـ فـاـذـاـ مـاـ اـرـدـنـاـ النـهـوضـ بـالـمـدـرـسـةـ وـجـبـ تـحـسـينـ
الـوـضـعـ الـاجـتـاعـيـ ، وـذـلـكـ بـاـنـ تـوـفـرـ الـفـرـصـ لـلـعـمـلـ وـاـنـ يـجـسـّـنـ
الـنـظـامـ الـاجـتـاعـيـ وـيـحـتـرـمـ الـعـمـلـ وـتـعـمـ الـعـدـالـةـ الـاجـتـاعـيـةـ . كلـ هـذـهـ

الاصلاحات يجب ان تم جنباً الى جنب مع الاصلاح «المدرسي». وعلى الامة العربية ان تدرك بنابع الحضارة الغربية و تتعرف الى جوهرها وفلسفتها وروحها والاتجاه مفاهيمها بالقشور المادية السطحية فقط ... فالانعزالية الفكرية لم تقترب يوماً مع انتلاق الامة العربية وتقدمها ، بل بالعكس رافقت تفكيرها وتفهّرها في جميع الميادين . »

إما المعلم على المحاضرة فقد اثار النقاط التالية حول الاهداف
والوسائل التربوية والمثل التي تهدف اليها المدرسة قال : « ولكن
ما اهداف المدرسة العربية ؟ الاهداف العامة في نظري هي
التعلم الصحيح والأخلاقي ولا سيما الجماعية والعمل المنتج .

« ان النعلم الصحيح ، كما تعلمون ، هو ان يفهم الطالب بيته الطبيعية والاجتماعية والفكرية ، ان ينتبه الى ما يشاهد ، ان يجعل وينتقد ويستنتج ويبتكر . ولا يأتي ذلك إلا عن طريقين . او لا ان تكون مواد الدراسة ملائمة لمدارك الطالب العقلية ومتصلة بمحاجاته اتصالاً وثيقاً ، وثانياً ان يكون المدرس مدرباً تدريبياً صحيحاً لكي يتمكن من تدريب طلابه وتربيتهم التربية الحقة .

« قلت ان من الاهداف العامة الاخلاق ، فالمدرسة ليست مكاناً يدرس فيها الطالب اللغات والعلوم فيحسب . بل هي دار التربية ، هي دار ممارسة الاخلاق الطيبة - الاخلاص والتعاضد والشعور بالواجب نحو الفرد والجماعة . . . وقد قلت ان من الاهداف العامة التي تحفظ استقلال الأمة وكيانها العمل المنتج . ان اساس العلم والتعلم والعادات والحياة كلها هو العمل فهو

يمكن تفهم العلوم الطبيعية دون العمل في الخبر ؟ وهل يمكن الاختراع دون العمل؟ وهل تكتسب العادات دون ممارستها؟ وهل يمكن الانسان ان يحيى بغير العمل ؟ فلننخلع عن الكلام وانندفع الى العمل ، العمل الجدي ، العمل المنتج ..

«... واكرر فاقول : لا خلاص للشرق إلا بالتحرر من الجهل ومن الفقر ومن الآثرة الفردية والانقسام . ولا يتمنى ذلك إلا بال التربية الصحيحة وبالعمل ..

والنقاش الذي تلا ذلك دار في الدرجة الاولى حول الكتب والمناهج المدرسية ووسائل اصلاحها ، واثر المدرسة في تغيير عقلية الجماعة . وفي صدد اصلاح الاساليب عرضت المسألة التالية «سؤال يتعلّق باسمه المحاضر ، امس ، الاساليب العقيمة في التدريس - تدریس اللغة العربية نفسها ، اداة التعبير عن الفكر عندنا .

«لقد من المحاضر هذه الاداة الكبرى مسأً رفياً وكم تنبّت لو وقف عندها وففة المستطيل . ذلك ان النظر الى هذه اللغة اما هو نظر الى مستقبل العلم والفكر والدين والفن عند العرب . او ليست تعبيراً عنها جائعاً وبئنا لها جائعاً ، والصورة المتصلة بعادتها جميعاً ؟

«واذن كيف يمكن ان يكون لنا علم ايجابي منظم وفكّر حر وتشريع عادل ومنتقى في قواعد اللغة مكتمل ، ونحن نقدس الحرف في هذه اللغة ونؤمن به تزيلاً من السماء على الارض ، لا تصعيداً من الارض الى السماء ؟

«فهل يمكن ان نجرد هذا الحرف بما حمله عبر الزمان من عقيدة

هي وحدتها الموحى بها (اذا شئتم) وان ننزع عنہ قدسيته ونناوله للعالم العربي - من هذا المؤتمر - لساناً بشرياً ، يدرس وينقد وتتجري عليه سنة التطور كما تجري على الاحياء من ابناء البقاء ؟ اذ كيف تبراً اساليبنا من العقم ونحن نذهب الحرف ، ونقيد بالدين ونغفر جبين المنطق والعلم على اقدامه ؟

- ٤ -

اثارت محاضرة الشيخ الاتري من النقاش الشيء الكثير، ذلك ان الاستاذ الحاضر عرض قضية اساسية جداً في الاتجاه السياسي للعالم العربي ، والاسس التي يجب ان يقوم عليها . فالاستاذ الاتري يرى في الجامعة الاسلامية الحل الاخير والوحيد للمشاكل المختلفة التي تواجهها هذه الرقعة من الارض الممتدة من «مراكش الى جاودة». وهذا رأي له خطره عند الذين يرون ان يقوم الأمر في العالم العربي على قومية عربية . ودارت المناقشة حول هذه النقطة ، كما عرض المجتمعون قضية فصل الدين عن الدولة .
وكان المعلق اول من اوضح قضية القومية العربية والفرق بينها وبين الجامعة الاسلامية فقال :

« فالوحدة الاسلامية في عصرنا الحاضر ليست الامظير اساسياً يؤمن به فريق من المسلمين يحملون بعودة الامبراطورية الاسلامية الكبيرى . ولكن الاتجاه الحديث في لبنان وسوريا والعراق وفلسطين ومصر هو اتجاه عربي لا علاقة له بالدين . ولا ريب في ان الحاضر يتحدث عن الباكستان اكثر مما يتحدث عن مواطنه العرب القوميين حين يشيد بهذا الحكم .

« وحقيقة الاسلام : دين روحي في اسسه ، واتصل بالسياسة لتوطيد اركانه الروحية . وحين اتصل بالسياسة اتصل بالمجتمع والتشريع فنظم للعرب - في الاساس - شؤون معيشتهم اذ وضع لهم نظاماً اصلاحياً شاملأ اثبت بناجحه حين كان المسلمين متسلكين به ... وبسبب من نشوئه التاريخي ... اخذت تزول عن الاسلام هذه البساطة ليجعل محلها الجدل والكلام والسفطة والفرق والشيع والمذاهب ... والذي ساعد على بقاء هذه المذاهب الفقهية وانتشارها اصطباغها بالطابع السياسي ، فزالت العقيدة وحللت محلها السياسة . ولقد كانت جميع المحاولات الاصلاحية سياسية لا روحية او روحية سياسية . فاحركة الوهابية حركة سلفية لم تثبت ان اصطبغت بالصبغة السياسية . والحركة الجمالية الافغانية حركة سياسية صرفة . اما نهضة محمد عبده فانها النهضة الاصلاحية الروحية الوحيدة في الاسلام .

« ولعلّ الصعوبة القائمة في وجه الاصلاح الاسلامي هي مائلة في هذا الكمال الذي نشاهده في تراثنا الفكري والمذهبي والتشريعي والاجتماعي ، لقد ورثنا مذاهب وشرائع ومعتقدات كاملة الكمال كله ، بحيث انك لن تجد فيها ثغرة للنفاذ الى اصلاحها ، هذا الكمال يجعل المحاولة صعبة ان لم تكن مستحيلة .

« ولا يصلاح آخر هذا الدين الا بما صلح به اوله . وكان الاسلام في اوله فائماً على البساطة ، فالعوده الى البساطة الأولى والاعتداد على الكتاب وما ثبت لك من سيرة الرسول وحديثه ، والاعتداد على حرية التفسير التي دعا اليها المؤثر في فهم كتاب الله

والابتعاد عن هذه الادران التي علقت بالاسلام ، هذه كلها يصح ان تعتبر اساساً لاتجاه صحيح نحو الاصلاح . وعندئذٍ تزول الفرق والمذاهب ولا يبقى الا مذهب واحد وهو الاسلام الصحيح . « ان الاسلام قد خرج عن حقيقته حين اصبح جدلاً وسفطة وهو يعود الى حقيقته حين يصبح ايمازاً بالكتاب وتفهماً حراً لمعانيه ، بصرف النظر عن السياسة والدولة والشؤون الدنيوية الاخرى . فالدين ارفع من ان ينحيط الى هذا الدرك . »

وكلمة المعلق هذه اثارت المشكلة الاولى ، التي كان من الطبيعي ان تثار ، وهي قضية فصل الدين عن الدولة . فقد قال احد الاعضاء : « ان الذين يدعون الى جامعة اسلامية هم بنظرني كالذين يدعون الى انشاء وطن مسيحي في لبنان ووطن يهودي في فلسطين ، فهم يريدون اقامة القومية على اساس الدين . وماذا ينتيج عن ذلك ؟ افساح المجال لوقوع الاقليات فريسة هينة للاجنبي يومها التوجيه الذي يرسمه لها ، وعند ذاك تندفع اندفاعاً كلياً لانشاء او طآن قومية تعلمون ونعلم ما هي اهدافها . انـا ، يا سيدى ، نريد ان نفصل الدين عن الدولة ... نريد الغاء الطائفية من حياتنا السياسية » .

وهذه الدعوة الى فصل الدين عن الدولة اعتبرها فريق من الاعضاء عنصراً ضرورياً في سبيل دعم القومية العربية ، واتجاهها صحيحاً في سبيل الدعوة اليها . اما المحاضر في الرد عليهم فلم يرض بان يكون الاسلام قوة روحية فحسب ولكن قوة سياسية ايضاً . وقد اثار عضو آخر مسألة هامة ، لم يتسع الوقت لمناقشتها تماماً ،

وهي موقف الباحثين المسلمين من العقل والنقل ، او موقف العلم من الدين ، والمشكلة هي ماذا يحدث عند ما يتعارض العقل والنقل في قضية ، وايهمها اخرى بالاتباع ؟

ووجهة نظر المعاشر في رده كانت ان الاسلام في القرن الثالث للهجرة تعرض لهذه الازمة الفكرية ، وخلص الباحثون المسلمين إلى نتيجة لا تزال قائمة ، وهي أن العقل والنقل لا يمكن ان يختلفا ، ولا بد ان يتتفقا . وادن فالاختلاف بينهما فرض لا تبرر وقائع الحال وجوده .

- ٥ -

هذه بعض اصداء ل النقاش الذي جرى بين اعضاء المؤتمر في وست هول حول هذه القضايا . ولكن الاصداء لم تقتصر في الواقع على هذا البناء . فقد ردت الصحف في بيروت اصداء اخرى . والشيء الذي بدا واضحاً هو ان المؤتمر كان منبراً لتبادل الرأي الحر . فقد قال كلّ ما رأى ، وسمع لرأيه جواباً ، وقد يكون قبله او رفظه ، ولكن المهم هو ان الخالف له ، مثل الموافق لرأيه ، استطاع ان يقول ما يريد .

واحسب ان الاختبار الذي كسبناه من عقد هذا المؤتمر ، سيكون حافزاً لنا على عقد مؤتمرات اخرى ، تعرض لمشاكلها ، وتبادل فيها وجهات النظر ، دون ترويج لرأي معين او فكرة خاصة او اتجاه مقصود .

فهرست

صفحة

٥	مقدمة
٨	مؤثر الدراسات العربية
١١	موقف الفكر العربي من الحضارة الغربية
٣٧	التشريع الإسلامي والمجتمع الحديث
٦٠	المدرسة العربية
٨٥	الاتجاهات الحديثة في الإسلام
١٣٣	صدى المخاضرات